نضال رشيد

(حملة فريزر)

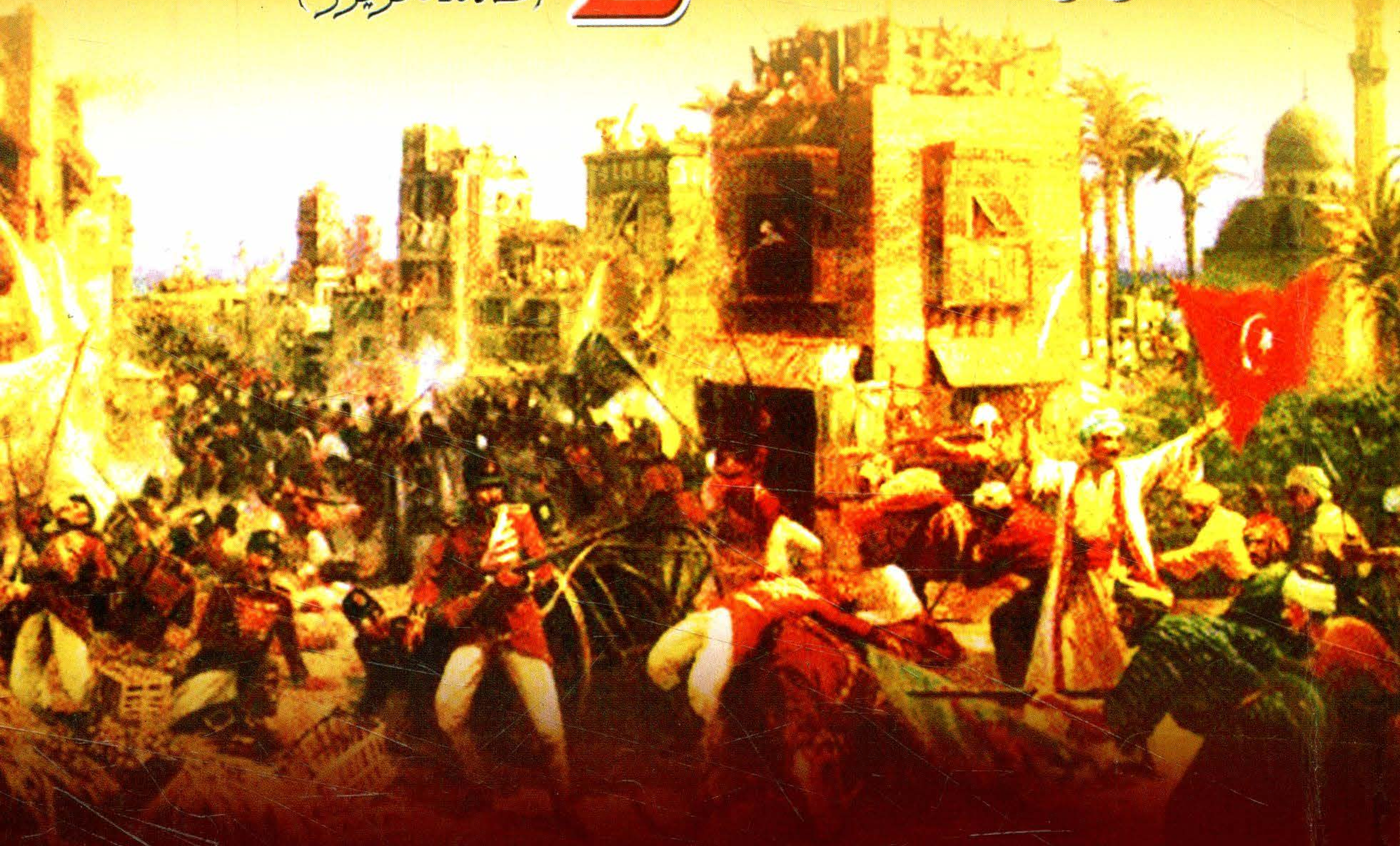

محمود أحمد الصيرفي

96
S2

نضال الشعب المصري

في

رشيد

حملة فريزر عام ١٨٠٧

(وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ.)

صدق الله العظيم

مقدمـــه

في صباح الخميس **19** مارس من عام **1807** سارت قوة عسكرية إنجليزيه من الاسكندرية إلى رشيد لاحتلالها، قوامها **1600** جندى يقودها الجنرال ويكوب. وذلك تنفيذا لأمر القائد العام للحملة الجنرال فريزر لتعزيز مركزه وتأمين قواته بالاسكندرية بعد أن استولى عليها بسهولة.

وبعد إجتياز الكثبان الرملية سيراً على الأقدام، وصلت القوة إلى رشيد مع غروب شمس الإثنين 30 مارس وعسكرت فوق مرتفعات أبى مندور.

وفى صبيحة اليوم التالى دخلت القوة إلى رشيد فاتحةً غازيه. لم تجد القوة الإنجليزية أية مقاومة عند دخولها إلى رشيد : بوابة المدينة الغربيه مفتوحه على مصراعيها دون حراسة. لاتوجد إستحكامات عسكريه، جنود الحامية التركية وعددهم (700 جندى) لا أثر لهم كأنما ابتلعتهم الأرض. كانت رشيد .. كأنقاض مدينة هجرها أهلها ! وفوق كل ذلك كان والى مصر محمد علي مشغولا بمحاربة المماليك فى الصعيد.

دخل جنود الحملة إلى المدينة يتقدمهم قائدهم ويكوب وانتشروا فى أرجائها. ولجأ الجنود إلى ظلال البيوت يلتمسون بعض الراحة .. وهنا إنشقت الأرض وخرج أهل رشيد رجالا ونساء، شيوخاً وأطفالا، إنقضوا على جنود الحملة مكبرين مهللين .. فارتبكت جموعهم وانهارت عزائمهم .. فأعملوا فيهم أسلحتهم البسيطة : الأدوات الحديديه والنبابيت .. والزيت المغلى وأوانى الماء الفخارية تصب على رؤوسهم من مشربيات البيوت. ومن فوق الأسطح إنهالت عليهم حجارةً من سجّيل.

ولم يمض وقت طويل حتى إنتهت المعركة غير المتكافئة بين قوات نظامية لأكبر إمبراطورية وبين أهالى ليسوا مدربين على القتال وليس معهم سلاح .. إنتهت المعركة لصالح هؤلاء الذين يدافعون عن وجودهم : الأرض والعرض.

وأسفرت المعركة عن قتل قائد الحملة (جنرال ويكوب) و 170 من الجنود والضباط و 250 أسيرا و 120 جريحا. وهرب من كان حيا إلى الاسكندرية.

***

لقد غيرت هذه المعركة المفاهيم العسكرية الراسخة التى تعوّد أن ينتصر فيها الأقوى سلاحا والأكثر جندا وأكدت القوانين الإلـهية السرمدية : التى ينصر الله فيها من ينصره، وأن النصر من عند الله، وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

***

حاربت رشيد وانتصرت .. فى حربٍ مشروعة .. ولعلها تكون أول من ابتكرت حرب المدن والشوارع .. ولعلها تكون أول من ابتكرت سلاح السكاكين والشوم والعصي والحجارة فى حربٍ ضد قواتٍ نظاميةٍ لأكبرِ إمبراطورية .. وليس فى خناقة أو عركة بين فتوات الأحياء والحارات.

حاربت رشيد يعاضدها قوة إيمان .. ويغذيها صدق يقين. إنه النضال الذى جُبل عليه المصري الأصيل .. لايستسلم للهزيمة ولا يقبل الإهانة.

وإياك إيّاك من إغضاب الحليم الأريب .. فصبره عجيب .. وفورانه مهيب .. فلا يفور إلا الحليب !

***

شعرت رشيد إذن بالمسئولية الملقاة عليها فهبت تدافع عن أمها مصر .. التى أنهكها الطامعون بالحرب والسلب والنهب، قامت تحارب وحيدة .. حتى تتعافى " المحروسة ".

فقد كان والى مصر – كما قلنا – مشغولا عنها بمطاردة المماليك .. والمماليك يظلمون وينهبون قوت الفقير .. والسلطان العثماني الذى تعتبر مصر فى ذلك الحين إحدى ولايات إمبراطوريته لاحول له ولا قوه. (كانوا يطلقون عليه فى أوربا " رجل أوربا المريض ").

كانت رشيد فى ذلك الزمان .. هي كل ما تبقى جميلا على أرض مصر.

***

وإننى لأتعجّبُ كيف لم يفكر أحدٌ ممن يهتمون بإزكاء الروح الوطنية لدى الشعوب فى الإستفادة من قصة نضال هذا الشعب فى رشيد وإلقاء الضوء على أعظم صفحة من صفحات النضال الوطنى ضد القوى الغاشمه التى تنتهك حرية الشعوب إنتهاكا .. وتقهر إرادتها قهراً .. فى كل عصرٍ وفى كل مِصر.

فقد وجد الشعب المصرى نفسه لأول مرة وجها لوجه أمام مسئوليته الوطنية فشعر أن هذا البلد بلده وأنه هو من يجب عليه أن يدافع عنه بعد أن عاش فترة طويله يتولى الدفاع عنه من يملكون قياده من الغرباء. وهم فى الواقع لا يدافعون إلا عن مصالحهم الشخصية .. فمصر فى نظرهم ما هي إلا كنز الذهب المستباح وضرع الحليب المستساغ الذى يجب أن يُحلب لآخر قطرة. وما على هذا المصري الفلاح إلا أن يزرع ويكدح ليحصدوا هم وليغتنوا هم.

هذا المصري لم يُمكّن – لزمنٍ طويل – من المشاركة فى شرف الجندية فى بلده ولم يُستعمل فى الدفاع عن أرضه. وهاهي الفرصة قد سنحت له ليثبت لنفسه وللعالم من حوله أنه جدير بأن يدافع عن بلده بنفسه ويتذوق حلاوة النصر الذى صنعته يداه .. فهاهم جنود الإمبراطورية البريطانية قد دهموا وطنه واستباحوا أرضه .. فى غيبةٍ من حكام .. فقد كانوا يقتتلون فى الصعيد أيهم يحكم مصر. وفى غيبةٍ من سلاح .. فاتخذ من جسده قلعة يحتمى بها ومن يديه العاريتين أدواتُ حربٍ يواجه بها العدو.

وتحقق النصر .. وفوجئ العالم حينئذ بهذا الفلاح وقد إستعاد وعيه وسرت فى روحه أمجاد العسكرية القديمة التى كاد غبار الإنكسار أن يمحوَها ويقضى عليها

***

فلعلّنى إذن لا أبالغ إن قلت أن ذلك النصر فى رشيد كان يمثل عودة الوعي إلى الأمة المصرية بعد أن كان المصري مغيّباً عن بلده.

جاءت الحرب فى رشيد ليحرر الشعب إرادته .. فهي حرب تحرير الإرادة قبل أن تكون حرب تحرير الأرض. وفرقٌ شاسعٌ بين الإثنين .. فالمحارب الذى قيّدت إرادته لا يستطيع أن يكسب معركة.

حارب المصري عندما وجد أن سفينة مصر تتقاذفها الأمواج وليس لها وجهة تقصدها ولا ربان يقودها. فنهض يمسك الدفه. ثم اكتفى بعد النصر بأن عاد إلى معشوقته .. أرض مصر .. يعمل ويكدح .. لا يريد أن يشغله عن ذلك شاغل.

***

ولعل هناك ملمح تقارب – بل كل التقارب – بين ماحدث في رشيد 31 مارس 1807 وبين ما حدث في ميدان التحرير .. ثورة 25 يناير 2011.

(وهي الثورة التى قيل عنها أنها أعظم ثورة فى التارخ البشرى بأكمله وأنها أعظم من الثورة الفرنسيه والثورة الأمريكية. وقال عنها الرئيس الأمريكى باراك أوباما : (يجب أن نربى أبناءنا ليصبحوا كأبناء مصر.) وقال عنها رئيس وزراء ايطاليا : (لا جديد فى مصر فقد صنع المصريون التاريخ كالعادة.) وقال عنها رئيس النمسا : (شعب مصر أعظم شعوب الأرض ويستحق جائزة نوبل للسلام.) وقال رئيس وزراء بريطانيا : (يجب أن ندرس الثورة المصرية فى المدارس.) وقالت الوكالة الإخبارية س ان ان : (لأول مرة فى التاريخ نرى شعبا يقوم بثورة ثم ينظف الشوارع بعدها.)

أسوق هذه الأقوال فى حب مصر لأبرهن أننى لست وحدى .. ولا المصريون وحدهم .. من هو مهووش بهذه السمراء الفاتنة.)

***

فى كلتا الحالتين – فى رشيد وفى ميدان التحرير – نهض الشعب عندما أحس أن سفينة مصر تتجاذبها الأمواج وتكاد تفقد الإتجاه .. فنهض يمسك بالدفه. ولا يتركها إلا إذا تأكد أن الوجهة صحيحة والمقصد بيّن.

وفى كلتا الحالتين – فى رشيد وفى ميدان التحرير – كان المصري زاهداً فى السلطة راغباً عن الحكم .. ولو أراد السلطة فى كلتا الحالتين لكان له ما أراد. لكنه زاهدٌ فيها .. نرى زهد هذا الشعب فى السلطة واضحا عندما قام العلماء ومشايخ الأزهر عام 1805 – يقودهم السيد عمر مكرم– بعزل الوالى خورشيد

الذى عينه السلطان العثمانى، عزلوه لظلمه للشعب ولكثرة الضرائب الى فرضها عليهم. وبعد عزل خورشيد .. إختاروا محمد على ليكون واليا عليهم !

وقد كان باستطاعة السيد عمر مكرم أن يتولى هو ولاية مصر حينئذ. بل كان الانجليز يكتبون فى مراجعهم أن السيد عمر مكرم هو " نائب " الوالى .. مع أنه لم يكن نائبا .. وذلك لما كان له من نفوذ على الشعب .. فكلمته مطاعة بينهم.

***

ملمح آخر فى التقارب بين الحدثين .. فى عام 1807 و 2011 : أن " الشعب يريد " أن يثبت أنه موجود بقوة .. رغم التهميش. وأنه قادر على أن يحمى معشوقته مصر إذا أهينت أو تعرضت لخطر .. يدافع عنها وبأقل الأدوات.

فى رشيد : جمع ماعنده من أدوات بسيطة وذهب يقاتل بها الانجليز فهزمهم فى ساعة أو بعض ساعة.

وفى التحرير: زحف فقط إلى الميدان فاسقط فساد سنواتٍ فى يومٍ أو بعض يوم.

كأنما يريد المصري أن يقول أننى قادرٌ على سحق كل من يمس أرض مصر بسوء. كل ما أريده أن يتركونى أبنى حضارتى التى بدأتها مُنذ فجر التاريخ .. وأعمّر هذا العالم الذى أُوكِلَ إليّ إعمارُه .. فتلك فطرتى التى فُطِرْتُ عليها.

***

وقد تكون سِمَة سلبية فى هذا الشعب .. أن يزهد فى الحكم. ولكن لا ننسى أنه مر زمن طويل على هذا المصري وهو يرى أجناساً من البشر يتعاقبون على حكمه .. من عام 627 ق م . عندما دخل الفرس إلى مصر وقضوا على إمبرطورية المصرية.

حتى ليقول الزجال محمود بيرم التونسى :

شبعتى يا مصر من خلقة وجوه وذوات

عايزين مُزارع يخلصنا م الآفـات

والمزارع الذى يقصده بيرم هو حاكم .. إبن مصر .. يشعر بها وبأمراضها.

ولقد أورد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى نصا فى كتابه "عجائب الآثار فى التراجم والأخبار " يبين معاناته هو أيضا من سلبية المصرى فى الحكم يقول فيه : (ولكن

ما حيلة أهالى الأقليم والأطماع تحوطهم فى كل مكان وفى كل العصور يعملون لمن يضرهم ويسلب نعمهم.)

نعم كانوا يعملون وينتصرون ويحاربون لمن يضرهم ويسلب نعمهم !!! ولكنهم من اليوم لن يعملوا وينتصروا إلا لمصلحة مصر .. ولخير المصريين.

***

وما أظن أن وقوع هذين الحدثين : تحرك الشعب فى رشيد ثم تحركه فى الميدان .. إن هما إلا إختلاجة قلب مصر فى جسدها الهامد إيذانا باستيقاظه من سباتٍ عميق. وإن بَعُدت المسافة الزمنية بين الحدثين .. ظاهريا. فمئتي سنه فى عمر الأمم لا تمثل إلا برهة فى عُمْرٍ يُقاسُ بآف السنين.

***

حاولتُ هنا أن أسجل هذه الصفحة المضيئة فى تاريخ بلدى رشيد .. بنت مصر فالتزمت بما كتبه المؤرخون. أما ما سكتوا عنه، فقد أعملت فيه العقل والفكر .. بحيث لا تتأثر الأحداث التاريخية لهذا الحدث العظيم.

وأعملت القلب والعاطفة .. حتى تكون الصورة واضحة تكاد تنبض بحرارة الأحداث. فليس منطقيا ولاعاطفيا – وهو ليس كتاب تاريخ– أن أكتب عن رشيد ولا أعبر لها عما يكنّه قلبى لها من إجلالٍ ومحبة. فأنا أجوب العالم .. وقلبى مُودَعٌ فيها. فلعلنى وقد نجحت مع عقلى وقلبى، أكون قد قدمت لمحبوبتى رشيد .. بعض ما تستحق.

***

الله أسأل أن يكون هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم. وأن ينفع به أجيالاً من أبناء رشيد .. كي يعرفوا ويتعرفوا على التاريخ المجيد لبلدهم المجيدة .

محمود

الاسكندرية فى غرة شهر الله المحرم 1433

الموافق 26 نوفمبر 2011

تمهيد

لم أر فى حياتى ولم أسمع، عن وليدٍ وُلد بطلاً .. مُفْرَط البطوله ! شجاعٍ .. موفور الشجاعه ! عملاقٍ .. باديَ العملقه ! كهذا المولود الذى وُلد ذات يومٍ من عام 1807 على أرض رشيد.

ففى ذلك اليوم وُلد فى رشيد مولودٌ إسمه " النصر " . وذلك عندما إنتصرت رشيد على حملة فريزر الإنجليزية.

فقد قُدّر لهذا الشعب الأعزل أن يتصدّى لجيوش إنجلترا .. أقوى إمبراطوريه لاتغيب الشمس عن مستعمراتها .. فيهزمها بإذن الله !

وانتصر الحقُ على الباطل. ووُلد النصر. وسُجل هذا المولود فى شهادة ميلاد تثبت فيه نسبه الشرعي لأهله وبلده.

(شهادة ميلاد)

إنه فى صباح يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من شهر الله المحرم عام 1222 للهجرة ، الموافق 31 من مارس عام 1807 للميلاد. وفى عهد السلطان العثماني سليم الثالث، وولاية محمد على باشا على مصر، رزقت رشيد بهذا المولود الآتي بياناته :

إسم المولود	المنتصر بالله. وكنيته أبو الفرج.
إسم الأب	نضال.
إسم الأم	إخلاص.
محل الميلاد / والشياخة	رشيد / شياخة أولياء الله.
إسم المحافظة	محافظة رشيد – مصر المحروسة .
نوع المولود	ذكر.

وتعهد المولود بالرعاية ، السيد محافظ البلدة على بك السلانكلى لما رآه فيه من شجاعة ولما لمسه فيه من إقدام.

وباركه الشيخ حسن كريت، لما توسّم فيه من طيبِ منبتٍ، وحُسنِ مَقصِدْ.

وكُتبت بيانات هذا المولود فى شهادة ميلاد مَهَرها الله بيمينه حيث قال جل شأنه : " إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. "

* * *

ففى ذلك اليوم .. نصرت اللهَ رشيدُ، فلم تعتدي ولم تظلم .. بل أُعتديَ عليها فى عُقر دارها .. فنصرها الله.

فى ذلك اليوم .. نصرت اللهَ رشيدُ .. فطهّرت صفوفها من الفساد والمفسدين .. فنصرُ الله لايحلُّ بأرض فساد .. فنصرها الله.

فى ذلك اليوم .. نصرت اللهَ رشيدُ .. فبدأت الجهاد بالتكبير والتهليل وطلب النصر من الله .. من فوق مئذنة مسجد زغلول.

وطار " زغلول " بهذا الأذان فى كل أرجاء رشيد .. وإن كان مايزال " زغلولا " لايتقن الطيران. وكان الله من وراء القصد فهو المستعان.

* * *

والتف حول هذا المولود.. الأهل والأقارب من عشيرته المنتشرين فى بلاد البحيرة .. فرحين بميلاده الميمون .. فخورين بشجاعته الباسله.

وقد إزَّينتْ رشيدُ يومها برداءٍ سندسي أخضر .. مُوشّى بنمنمات من الزهور متنوعة الألوان والأشكال من صُنع الربيع الذى أقبل مع شهر مارس.

* * *

وفى يوم " السبوع " ، 7 إبريل، تعرض هذا الوليد لوعكةٍ بسيطة. فقد حاصره الإنجليز بمدافعهم، بعد أن انتصر عليهم فى المعركة الأولى، وشعروا أن مولده خطرٌ عليهم .. يريدون القضاء عليه وهو مايزال فى المهد.

فتنادت عشيرته من أهل البحيرة .. يلتفون حوله .. يتلقون عنه السهام .. ويفكون عنه الحصار.

وجاء الفرج .. وتعافى الوليد .. ودحر اللهُ العدوّ وخذله.

وحضر الوالي من القاهرة .. يسجل إنتصار هذا الوليد البطل على الإنجليز فى معاهدة .. خرج على إثرها الإنجليز من مصر كلها فى 19 سبتمبر من نفس عام النصر.

ويبعث السلطان من تركيا .. يهنئ الوالى بما أحرزه هذا البطل من رشيد من نصرٍ على الأعداء.

وأصبح يوم 19 سبتمبر .. يوم خروج الإنجليز من مصر .. عيدا قوميا لرشيد بلد المناضلين .. يشاركها الإحتفال به أفراد عشيرتها وأقاربها من أهل البحيرة .. ويتلقون التهانى .. من مصر كلها.

***

تعالوا معاً نتصفح كتاب النصر .. ولنتنسم ريح الجنة ..

" فالجنة تحت ظلال السيوف. "

وما أظن أن السيوف إرتفعت فى ذلك اليوم فى رشيد إلاّ حباً فى الجنه.

محمود

الباب الأول

مسرح الأحداث العالمى فى هذه الفترة :

قد يكون من المفيد لنا جميعا ونحن ندرس هذه الحملة .. حملة فريزر على مصر عام 1807 .. أن نلقى نظرة أشمل وأوسع على مجريات الأمور التى كانت تحتل الساحة العالمية فى تلك الوقت. فلا يصح أن نجرد الحدث من الأحداث التى تدور حوله، فمن المؤكد أنه كان يتأثر بها، وتؤثر فيه.

كانت أهم القوى فى العالم فى ذلك الوقت الذى نتحدث عنه :

الدولة العثمانيه، إنجلترا، فرنسا وروسيا .. وبعض الدول الأوربية الإستعمارية التى بدأت تظهر على المسرح العالمي.

(1) الدولة العثمانيه :

هي إمبراطورية إسلامية (فى تركيا) أسسها عثمان الأول بن أرطغرل، وبالتحديد منذ 27 يوليو سنة 1299م (آخر القرن الثالث عشر) حتى 29 أكتوبر سنة 1923م (أوائل القرن العشرين). أي استمرت قائمة لما يقرب من 600 سنة. بلغت الدولة العثمانية ذروة مجدها وقوتها خلال القرنين السادس عشر والسابع عشر، فامتدت أراضيها لتشمل أنحاء واسعة من قارات العالم القديم الثلاثة: أوروبا وآسيا وأفريقيا، حيث خضعت لها كامل آسيا الصغرى وأجزاء كبيرة من جنوب شرق أوروبا،وغربي آسيا، وشمالي أفريقيا. أضحت الدولة العثمانية في عهد السلطان سليمان الأول "القانوني" (حكم منذ عام 1520م حتى عام 1566م)، قوّة عظمى من الناحيتين السياسية والعسكرية، وأصبحت عاصمتها القسطنطينية تلعب دور همزة الوصل بين العالمين الأوروبي المسيحي والشرقي الإسلامي.

وبعد انتهاء عهد السلطان سالف الذكر، الذي يُعتبر عصر الدولة العثمانية الذهبي، أصيبت الدولة بالضعف والتفسخ وأخذت تفقد ممتلكاتها شيئا فشيئا.

انتهت الدولة العثمانية بصفتها السياسية بتاريخ 1 نوفمبر سنة 1922م، وأزيلت بوصفها دولة قائمة بحكم القانون في 24 يوليو سنة 1923م، بعد توقيعها على معاهدة لوزان، وزالت نهائيًا في 29 أكتوبر من نفس السنة عند قيام الجمهورية التركية، التي تعتبر حاليًا الوريث الشرعي للدولة العثمانية.

***

كيف أصبحت مصر ولاية عثمانية ؟

هزم العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول، السلطان قنصوة الغوري قائد المماليك الشراكسة بمصر فى موقعة مرج دابق بجوار حلب بسوريا عام 1517م، فتقدم العثمانيون نحو مصر وهزموا طومان باي الذى عينه عمه قنصوه الغورى نائبا له على مصر فهزمه العثمانيون فى موقعة الريدانية (صحراء العباسيه) وشنق على باب زويله. وبموته انتهت دولة المماليك الشراكسه وسقطت أيضا الخلافة العباسية التى كانت موجوده فى مصر (فبعد سقوط الخلافة العباسيه فى بغداد على يد المغول بايع السلطان بيبرس أحد أبناء البيت العباسى وهو أبو القاسم أحمد بالخلافه وسمي المستنصر. استمرت الخلافه العباسيه فى القاهره حتى الغزو العثمانى احتلالهم لمصر سنة 1517 فنقل العثمانيون أخر الخلفاء العباسيين وهو " المتوكل على الله الثالث " إلى استنبول و انتهى امر الخلافه العباسيه القاهريه).

واستتب الأمر للعثمانيين بمصر والشام وأصبحت مصر ولاية عثمانية.

يذكر المؤرخ ابن اياس الذى عايش تلك الفترة أن السلطان سليم الأول قام باستجلاب رؤساء الصنائع والحرفيين المهرة من مصر إلى الآستانة وبذلك قضى على عشرات الحرف الرئيسيه فى مصر بأخذه كل العمال المهرة إلى الآستانة.

العثمانيون تركوا إدارة شئون مصر للمماليك :

ولكن العثمانيين تركوا إدارة شؤون مصر للمماليك على اعتبار أنهم أدرى بشئونها. وظل الأمر هكذا حتى هجم الفرنسية على مصر بقيادة نابليون سنة 1213 هـ / 1798 م واستمرت هذه الحملة الفرنسيه مدة ثلاثة سنوات كشفّت فيها عوامل الضعف في الدولة العثمانية وفى المماليك وكشفت التخلف الحضاري الذي آل إليه المسلمون.

(السلطان سليم الأول أثناء حملته على مصر)

وحدوث شرخ كبير في نفوسهم نتيجة حالة الإنبهار التى انتابتهم من تقدم العدو التقني و العسكري. ثم جاءت الحملة الانجليزية على مصر عام 1807 وكان السلطان سليم الثالث هوالخليفه العثماني فى ذلك الوقت. وكانت الدولة العثمانية قد وصلت فى عهده إلى مرحلة الضعف.

(السلطان سليم الثالث)

(2) انجلترا وفرنسا :

وكانت القوتان الأخريان الموجودتان على الساحة الدوليه هما : انجلترا وفرنسا،وكان بينهما صراع وحروب على تقسيم هذه المستعمرات والمنافسة على احتلالها. وفى فرنسا قام الشعب بثورة عارمة

(نابليون بونابرت)

ضد طبقة النبلاء وفساد طبقة الحكام عام **1789** أعدمت الملك لويس **16** .. عندما شعر الشعب بمدى الظلم الواقع عليه. فإن الشعور بالظلم وليس الظلم نفسه هو الذى يولّد الثورات.

وخشي ملوك أوربا على أنفسهم من ثورة الفرنسيين ضد حكامهم !! فكوّنوا تحالفا للقضاء على الثورة قبل أن تنتشر مبادئها في بلادهم.

غير أن القوات الفرنسية بقيادة نابليون هزمت ملوك أوربا. ولكنها عجزت أمام إنجلترا وذلك لموقعها وقوة أسطولها البحري. فكان رأي نابليون أن يضرب إنجلترا في مستعمراتها، وذلك بأن يحتل مصر ليقطع اتصالها بأكبر مستعمراتها : الهند.

وبعد هزيمة المماليك واستيلاؤه على مصر قال نابليون قولته المشهورة : " لو كان عندى نصف هذا الجيش المصرى لغزوت العالم."

***

هذا هو الوضع الذى كان سائدا فى العالم وقت مجيئ حملة فريزر إلى مصر.

مصر ولاية عثمانية .. الدوله العثمانية دب إليها الضعف. ترسل ولاة إلى مصر كل همّهم جمع الضرائب والأموال لإرسالها للسلطان، غير مهتمين بالإصلاحات. وانجلترا وفرنسا قوتان هائلتان تريدان إقامة امبراطوريات من دول المستعمرات خاضعة لهما. ورغم أن مصر كانت تتبع السلطان العثمانى، إلا أن القوة الحقيقية التى تحكم مصر هم المماليك : متنافسون متحاربون فيما بينهم. وهم أيضا يفرضون الضرائب وينهبون خيرات البلاد ويستولون على قوت العباد ، يعيث جنودهم فسادا فى الأرض ونهبا.

والشعب المصرى لاحول له ولا قوة، تفتك به الأمراض، وتلاحقه الضرائب، غارق فى بؤس الفقر، قابع فى ظلام الجهل .. يعيش فى بلده كأنه غريب .. ويَنْهكْ قُواهُ الحكام كأنه غريمهم الوحيد.

لولا طاقة النور التى تأتيه من الإيمان الذى يرسّخه فيه شيوخه فى المساجد يمنونه بجزاء الصابرين.

(هجمات المماليك على الأهالى)

الباب الثانى

مصــر :

وبعد أن تعرفنا على أهم الأحداث التى كانت تجرى على المسرح العالمى، هيّا نتعرف على أحوال مصر فى تلك الفترة مع إلقاء ضوء ساطع على مدينة رشيد .. لنتعرف على المكان والسكان.

كان تعداد مصر فى عام 1800م – زمن الحملةالفرنسية التى عملت أول تعداد للسكان فى مصر– حوالى 2,5 مليون نسمة. وكانت الأوضاع الإجتماعية بمصر حينذاك كالتالى :

(ا) **طبقة الحكام** : تمثلت فى سلطة الوالى العثمانى التركى وسلطة المماليك الشراكسه. وكانت هذه الأخيره تزداد قوة.

وخلال العهد العثماني احتل شيخ الأزهر والعلماء مركزا بارزا وتمتع الجامع الأزهر باستقلاليه كبيرة أبعدته عن تدخل الدولة.

(ب) **تفاوت الطبقات** : طبقة أصحاب الثراء الواسع المتمثله فى أمراء المماليك وكبار التجار وشاهبندر التجار السيد أحمد المحروقى. وأصحاب الثراء المتوسط من مداهني السلطة وبعض التجار.

وأخيرا الفقراء الذين يعيشون تحت مستوى الصفر، وهم جميع شعب مصر، من فلاحين وأصحاب حرف.

(ج) **التعليم** : توزعته ثلاثة مستويات متباينه : العلماء والمشايخ وهم قلة قليله من المجتمع والمماليك الذين اقتصر تعليمهم على الحركات العسكرية والفروسية دون الثقافه العامه والأدب. والسواد الأعظم من الشعب غارق فى مستنقع الأمية والجهل.

(د) **القضاء** : كان كبير القضاة عثمانيا يعينه الوالى وغالبا ما لم يكن يعلم عن اللغة العربية شيئا.

وعندما جاء نابليون جعل منصب القاضى الشرعي للعلماء المصريين بالانتخاب فيما بينهم بدلا من القضاة الأتراك. وأنشأ مينو محكمه لكل طائفة مثل : القبط والشوام واليهود وغيرهم وكان يمكن عرض الأمر على القضاء الإسلامي (المحكمة الشرعية) إذا رغب أحد طرفي النزاع من غير المسلمين أو كلاهما معا.

(هـ) **الملكية** : كانت الأرض المصرية منذ عهد الفراعنة ملكا للحاكم.

فلما جاء الإسلام جعل حق الملكية الفردية مستمدا من ولي الأمر وكانت الأرض تنتقل بالوراثة فى مقابل ضريبة معينه (ضريبة تركات). لكن فى عهد العثمانيين أصبحت الأرض ملكا للسلطان وصار صاحب الأرض لا يملك رقبتها بل حق الانتفاع بها فإذا مات آلت أملاكه إلى الحكومة.

كذلك كان الحال فى عصر محمد على فهو المالك الوحيد لجميع أراضى مصر.

وفى ذلك يقول المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي عن محمد علي : " يتسم بداء الحسد والشر والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم. "

(و) **المستوى الصحي** : كان يتناوب على الشعب ثلاثة أمراض:

(1) الرمد : كان يصيب معظم أفراد الشعب وخاصة فى فصلي الربيع والصيف. وأعمى كثيرا من شعب مصر.

(2) **الطاعون** : كان ينتشر إبّان الخريف والشتاء فى صورة وباء. وقضى على كثير من المصريين.

(3) **أمراض الأطفال المختلفة** : وكانت تودى بكثير من المواليد.

وقد أنشأ نابليون أثناء الحملة الفرنسية على مصر محاجر صحية فى القاهرة والاسكندريه ودمياط ورشيد. (وكان المحجر الصحي برشيد يقع عند مشارف حدودها الجنوبية، أي بعيدا عن المناطق السكنية ويحجز فيها مرضى الطاعون. وكان المحجر فى رشيد يسمى الكردون لأنه يقع على حدود = كردون المدينة. وقد ظل هذا الكردون قائما يعمل برشيد حتى منتصف القرن الماضي.)

(ز) **القوات العسكرية** : لم يكن لمصر جيش من أبنائها. وإنما كانت القوات

العسكرية قوات عثمانيه تكلف مهام أمن العاصمة القاهرة فقط دون الدفاع عن مصر وكان يعهد إلى تلك القوات إدارة الجمارك والثغور (مثل رشيد ودمياط والإسكندرية والسويس).

لذلك لم تنشأ صناعات حربية، عدا معمل مراد بك لصناعة المدافع وذخيرتها لحساب جيشه الخاص فى منطقة إمبابه.

أما معدات المماليك وأسلحتهم، فكان كل فارس يعتبر جبخانه متحركة (مستودع سلاح) أو قلعة، فهو يركب حصانا مدرّعاً ويرتدى أفخر الثياب ويحمل ستة مسدسات أو أكثر إلى جانب بندقية أو اثنتين وسيف مرصع بالذهب والفضة والأحجار الكريمة وعدة سهام، فضلا عن حمله جزءا من ثروته الذهبية والفضية. فهو إذن يُعد غنيمة لو قتل أو أسر.

(فارس مملوكى فى لباس الحرب)

***

هكذا كان المجتمع المصري منقسما إلى فئتين متميزتين هما الحكام والمحكومين والحكام هم الطبقة الارستقراطية التركية والبكوات المماليك. امتلكوا السلطة والنفوذ والمال واعتزلوا الآخرين مترفعين عن معايشتهم.

أما المحكومون فمنهم المشايخ والعلماء والتجار ويمثلون الشريحة الوسطى.

والفلاحون وصغار الحرفيين وعامة الناس ويمثلون الشريحة الدنيا.

***

ويشاء القدر أن تكون هذه الشريحة الدنيا الفقيرة التى لم تفكر الدولة العثمانية والمملوكية من قبلها أن يتخذا منهم جندا ينخرطون فى الجيش .. يشاء القدر أن يقع على هذه الشريحة الدنيا الفقيرة عبء الدفاع عن مصر كلها وبالتالى عن الدولة العثمانية فى صد العدوان الانجليزي على مصر عام 1807 .

فهم أبناء هذه الأرض .. وإن كانوا لايمتلكونها.

وهم أبناء هذا الوطن .. وإن كانوا مهمّشين فيه.

فهم مِلح الأرض .. لا تستقيم الحياة إلا بهم، ولا ينتصر الحق إلا بسواعدهم.

الشعب يُنصّب محمد علي والياً على مصر:

كان يحكم مصر العثمانية فى زمن الحملة الانجليزية الوالي محمد على باشا. ولقد اختاره السيد عمر مكرم والعلماء ليكون واليا على مصر بعد أن عزلوا الوالي خورشيد باشا الذى عينه السلطان، لكثرة مظالمه وفداحة الضرائب التى فرضها على الشعب. ففى يوم 13 مايو **1805** قرر العلماء والمشايخ ونقباء الصناع والتجار عزل الوالي خورشيد (أي قبل مجيئ حملة فريزر إلى مصر بسنتين) واختيار محمد علي واليا على مصر بشروطهم لما يتوسمونه فيه من العدالة، والخير والدفاع عن الأهالي ضد مظالم الجنود. قبل محمد علي المنصب وقام إليه السيد عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ الشرقاوي شيخ الأزهر وألبساه خلعة الولاية بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق أن يسير بالعدل وألا يبرم أمراً إلا بمشورتهم، وجرت الأحداث إلي أن استقر الحكم لمحمد علي محمولاً علي أكتاف الزعامات الشعبية .

(وكانت الحملة الفرنسية قد نبهت الشعب المصري إلى فكرة المشاركة فى الحكم بدلا من فكرة الحكم المطلق المستبد وذلك عندما أنشأ نابليون الدواوين التى يشترك فيها المصريون لحكم أنفسهم بأنفسهم.)

فمن هو محمد علي باشا ؟

بعد خروج الحملة الفرنسية من مصر عام **1801**

كان بمصر ثلاث قوي عسكرية :

(محمد على باشا)

قوات المماليك والبدو في الصعيد. والثانية قوة الأتراك العثمانيين. ومعهم قوة ثالثة قوة الألبان (الأرناؤط) وكان من بينها محمد علي قد أتي جنديا شابا من جنودها عام 1799 وكان عمره وقتها ثلاثين عاما.

ومحمد علي من مواليد تسالونيك بشمال اليونان وأصله من ألبانيا الأوربيه المسلمه التى فتحها العثمانيون وأدخلوا فيها الإسلام.

عاش محمد على في قولة بائعا للدخان واشتغل جابيا للضرائب وهذه الوظيفة طبّعته بالقسوة التي لازمته طوال حياته. فكانت الدولة العثمانية ترسله لتأديب القرى التي تتأخر في دفع الضرائب فيعسكر هو وحملته التأديبية حول القرية ينهبون ويسلبون ويفزعون الآمنين حتى يرى أهل القرية أن من الأفضل لهم دفع الضرائب مهما كانت باهظة.

وترقى محمد على في الجندية وصار من كبار الضباط فى الفرقة التي أرسلها الخليفة سليم الثالث لإخراج الحملة الفرنسية من مصر.

***

أعتقد الآن أن الأرض قد مهدت، وأن الأمور قد اتضحت، وأن المسرح قد أصبح مهيئاً لنستعرض أحداث الحملة الانجليزية على مصر .. بعد أن استعرضنا خلفية تلك الحقبة .

الباب الثالث

رشـيد

تقع رشيد عند نهاية فرع النيل الغربي المسمى باسمها. وهي من أقدم المدن المصرية، فهي مدينه فرعونية أنشئت حوالي عام 800 قبل الميلاد وكانت تسمى " رخيت " والذى أصبح " رشيت " فى العصر القبطي.
وهي بذلك تكون أقدم من الإسكندرية التى أنشأها الإسكندر الأكبر سنة 332 ق.م.
وبالتالي هي أقدم من القاهرة التى أنشأها جوهر الصقلي سنة 358 هجريه – 969 م.
بني على أرضها معابد تقدس الفرعون، وكنائس يُعبد فيها الرب، ومساجد يذكر فيها الله الواحد .. فرشيد بنت كل هذا الثراء الفكري والديني، وهي محك حضارات قديمة جاءت إليها من كل أرجاء الدنيا.
وترجع شهرة رشيد فى العصر الحديث إلى حدثين جليلين، أحدهما علمي والآخر عسكري.

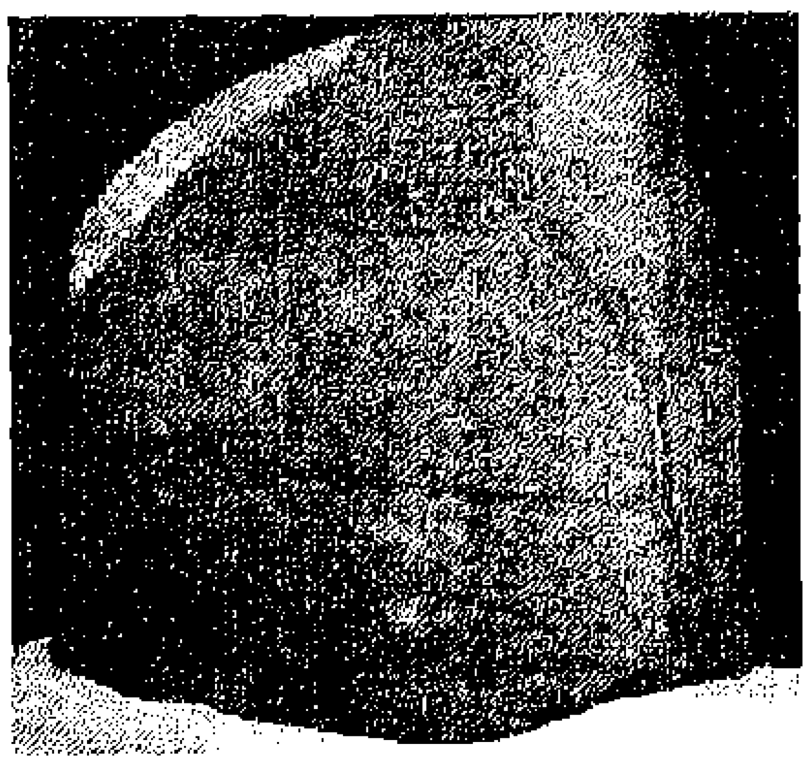

(حجر رشيد)

أما الحدث العلمي فهو اكتشاف حجر رشيد بقلعة قايتباي فى شمالها . وهو حجر من البازلت الأسود يعود تاريخه إلى عام 196ق م ومسجل عليه محضر تنصيب الكهنة للملك بطليموس الخامس والإعتراف به ملكا على مصر
والنص مكتوب بالهيروغليفية: اللغة الدينية المقدسة المتداولة في المعابد.
والديموطيقية: لغة الكتابة الشعبية (العامية المصرية). واليونانية القديمة كانت لغة الحكام الإغريق.
واستطاع العلماء عن طريق حل رموز هذه النصوص إكتشاف الحضارة المصرية القديمة.

وأما الحدث العسكري فهو هزيمة الحملة الإنجليزية بقيادة الجنرال فريزر.. موضوع هذا البحث.

رشيد زمن حملة فريزر :

كانت رشيد زمن الحملة الانجليزية على مصر، محافظة مصرية من المحافظات الهامة. يحكمها محافظ وبها حامية عسكرية تركية، ما عدا ذلك قسمت مصر إلى سبع مديريات يحكمها سنجق وليس بها حاميات عسكرية.

ولهذا كانت محافظة رشيد مدينة جميلة راقية – كما هي دائما – يعيش فيها أجناس مختلفة من البشر، جاءوا سعياً وراء الرزق والعيش الرغيد الذى كانت رشيد كفيلة بأن تمدهم به، باعتبارها الميناء الهام للصادرات والواردات لمصر المحروسة ومركز تجارى هام.

واستدعى هذا تواجد مندوبين للتّجار بها، سواء الأجانب أو من باقى المدن المصرية، لاستقبال البضائع والسفن الوافده، أو لتصريف البضائع المصرية والعربية إالى الخارج.

***

فأقيمت بها " المسافر خانه " لهؤلاء الوافدين إليها للمعيشة. وكان العثمابيون والمماليك ينزلون فيها مدة إقامتهم فى رشيد.

كذلك أنشئت الوكالات التجارية، يعرض فيها جميع أنواع " الرَخْت " أي البضائع : وكالة للأقمشة وأخرى للحبوب، وأخرى للبقل " الجبن والزيتون .. وبن القهوة .. وهكذا.

***

وانتشرت المقاهي الفخمة، يتلاقى فيها صاحب البضاعة، وطالب البضاعة، وبينهما من يحلّى البضاعة لهذا ويقبحها لذاك : السمسار، مع ارتشاف القهوة التركية، أو قرعة " البوزه " – شراب من الأرز أو الشعير أو الذرة –.

(مقهى يرتاده التجار والأعيان)

وكانت المقاهي ملتقى الثقافة العامة الشعبية. وكان شاعر الربابة فى هذه المقاهي ينشد الأغاني المرتجلة ويحكى القصص الخيالية، وكان رواد المقهى يبدون إعجابا شديدا بشاعر الربابة، وكانت تدور حوارات ومناقشات حول القصة التى يحكيها الشاعر، بل قد ينقسم الرواد إلى فريقين متنافسين يشجع كل منهما بطلا من أبطال القصة.

وقد شهدت تلك الفترة التبادل بين شعراء مصر وتركيا. فكان الشاعر يلقى شطرة باللغة العربية، تترجم بشطرة باللغة التركية.

***

وأصبح للدول الأجنبية الأوربية قناصل مقيمون فى محافظة رشيد، يصرّفون أمور دولهم ورعاياهم.

***

واستدعى ذلك وجود محكمة لتفض المنازعات التى قد تطرأ من أعمال التجارة وغيرها من المنازعات التى تتواجد بتواجد البشر فى كل زمان ومكان وحيث ينتشر " البرطيل " أي الرشوه وأخذ مالا يؤخذ إلا بها.

وكان يطلق على القضاة : " حماة البلاد" أو " شيوخ المدرسين "

وكان " وكلاء الدعاوى " (كتبة المحامين الآن) يسهلون للأهالي التعرف على الوسائل التى تكفل لهم حقوقهم وكتابة العقود الشرعية.

***

ما كان يعكر صفو هذه الحياة هم المماليك وأتباعهم : يقول الجبرتي، مؤرخ هذه الفترة فى كتابه : " عجائب الأخبار فى التراجم والآثار " : (أنه كان من الأسباب في خراب الإقليم المصري بما تجدد منه (مراد باشا) ومن مماليكه وأتباعه من الجور والقصور.)

***

وكان وجود " الجمرك " فى رشيد شيئا رئيسيا لجمع المكوس (ضريبة أو رسوم) على البضائع الوافدة والخارجة. وكان الجمرك تحت إشراف رجال الحامية التركية.

***

ودبت فى رشيد حركة بناء واسعة أقيمت فيها المنازل الفخمة على الطراز التركي للتجار المصريين والأجانب أظهر فيها العامل والصانع المصري مهارة شديدة وذوق رفيع، فى بناء المنازل ذات الثلاثة والأربعة طوابق.

***

كذلك استلزم ذلك وجود الحمّامات، وطواحين الغلال ، والأفران لإعداد الخبز وال " بقسماط " أي الخبز اليابس، لهؤلاء الوافدين مختلفي الجنسية مختلفي حاسة التذوق، فظهرت أنواع مختلفة من الخبز، وتنوعت المطاعم بحسب تنوع الطاعمين.

***

وكان يتوسط هذا العقد من زخم المباني " دار السعاده " أي منزل السيد محافظ رشيد، الذى اتسعت أعماله ومهامه، وكان ديوانه يعج بالقناصل والتجار والأعيان والمترجمين فى كافة اللغات.

وأمام بيته أنشئت حديقة بديعة ضمت أنواع مختلفة من الورود والأشجار وأنواع من الأشجار الأوروبية مثل النخيل الذى يستخدم للزينة، وليس للحصول على التمر والبلح. كذلك انتشرت الحدائق فى ميادين رشيد فى تلك الفترة.

***

وفى هذا الميدان – بجوار دار المحافظ – أقيمت " الشِخبجيّه " أي مكتب رئيس الشرطة، والذى كان يسمى " شَخنه " لأنه رئيس " الشحنه " أي الشرطة. ففى هذا الزخم التجاري يكثر " الشطّار " و" الزعران أو الزعر " وهم أوباش الناس أو ال " شلق " . وال " بطّالين " أي العاطلين.

ورُصِفت الطرق المحيطة ب " دار السعاده " – مبنى المحافظة – ومركز ال " الشحبجيه "– مركز البوليس أو الشرطة – وساحل النيل بحجارة بيضاء، وكذلك فى أرضية شارع السوق، وركّبت مصابيح فى الطرق توقد ليلا ومشاعل فى الأزقه والحارات.

***

وعلى طول الطريق المطل على النيل إمتدت مضارب الأرز، حيث كان الأرز يجلب من مزارعه فى أرض الدلتا المقابلة لرشيد من الجهة الشرقية حتى مدينة فوّه، فيغسل ، ويُضرب لتنزع قشرته، ويبيّض حتى يصبح معداً للبيع محليا أو لتصديره خارج مصر، وأخذت رشيد شهرة واسعة – محليه ودوليه – من وراء هذا الأرز الرشيدي.

***

وكذلك كثرت مصانع الطوب من الطمي الذى يجلبه النيل كل عام أيام الفيضان، يحمله على رأسه من مجاهل إفريقيا، ليرميه تحت أقدام رشيد، آخر محطة له فى رحلته، ثم يسبح بعد ذلك إلى البحر، ليغتسل مما علق به من طين ، وليكون نظيفا فى حضرة رشيد.

وكانت قمائن الطوب (أفران الطين) توجد على امتداد شاطئ النيل لإعداده لكي يستخدم فى البناء بعد إدخال الطمي إلى هذه القمائن، ويطلى باللونين الأسود أو الطوبى.

والطوب هو الذى كوّن هذا المتحف المفتوح للعمارة فى رشيد، مع استخدام مونة بارزه – كحله – ذات اللون الأبيض بين المداميك.

***

وتوجد كذلك على امتداد الشاطئ شوادر لبيع الخشب الذى تجلبه السفن الضخمة من دول أوربا والشام عبر البحر وتدخل به عبر البوغاز إلى رشيد.

فانتشرت مناشير الخشب حول هذه الشوادر، تعده ألواحا تدخل فى صناعة السفن وال " بستينى " أي مركب شراعى أو " البُطس " وهى المراكب الكبيرة، والقوارب واللوتسيّات والسكونيات، وغيرها مما برع أهل رشيد فى صنعتة من سفن تجرى بهم فوق سطح اليم، ربطت رشيد ومصر بالعالم.

***

وفى " القيساريه " أي السوق الذى يجمع مختلف التجارات انتشرت الوكالات التجارية التى تبيع الأقمشة والثياب، يديرها " الخِرَقِيّ " أي من يبيع الخرق والثياب، فنجد عنده " الدبابيق " أي الحرير، و " السفلاطون " أي الملابس الملونة، وال " سِقِرْلاط " ملابس صوفية، من أقمشة أوربية وتركية، بجانب حراير إخميم، وجلاليب السودان، ومزركشات المغرب العريش .. كانت رشيد منفتحه على عالمها يأتيها الناس من حَدْبٍ وصَوْبٍ.

والوكالات التجارية التى تبيع أنواع الفواكه. و " الجوارش " أي الحلوى. والعطور من مختلف البلدان.

***

ولا يمنع وأنت تسير فى ال " قيسارية " أن تتعثر فى طريقك بكثير من الدراويش والمجاذيب، الذين ضاقت بهم الدنيا، فعاشوا فى ملكوت السماء.

***

وانتشرت المعاصر، لتعصر الحبوب بين رحايا تديرها الخيول أو الحمير أو الجمال، فيتقاطر الزيت فى مختلف أنواع الحبوب : السمسم، والكتان، والخس، والزيتون ...

وانتشرت مصانع تصنع الأقفاص من سعف النخل، توضع فيها الفاكهة والخضروات، فتظل طازجة نديّه.

***

وفى شوارع محافظة رشيد، تجاورت العمامة والبرنيطة و" الشربوش " أي الطربوش و " الكلّوتات " أي طاقية صغيرة من الصوف مع القطن، و " الكلبندات " جمع كلبنده أي كوفيّه، واللاسه واللبده.

وتجاورت الجبّة والقفطان بالزي الإفرنجي : البدلة . وبالزي التركى: الصديري والفرملة والشملة الحمراء تربط على الوسط ، والسروال – اللباس – الطويل أبو لِيّه أو أبو كَمَر،أي الحزام المفرغ من وسطه لوضع النقود أو نحوها. بجانب " البغلطاق " أي المعطف ذو الأكمام القصيرة. و " البَرَك " أي ثوب من وبر الجمل. وتجاورت اللحية الطويلة للمشايخ وأهل العلم، مع الأخرى القصيرة.-والشنب ذو الأطراف المبرومة إلى أعلى، بالأخرى المنكسرة لأسفل.

***

كذلك تنوعت ملابس النساء، تبعاً للمستوى المادي أو الجنسية. فتجاورت الحَبَرة والملس بالأزياء الأوربية والتركية التى كانت تعج بها وكالات الأقمشة والملابس. بجانب الجلابية الزرقاء ذات الصدر المفتوح التى ترتديها الفلاحة المصرية، والتى اكتسبت لونها الأزرق من نبات النيلة، الذى كانت جدتها الفرعونية تستخدمه. وتنوع غطاء الوجه للسيدات فمنهن من ترتدى " بزْدَة " أي الحجاب من قماش يصل من تحت عينيها إلى أسفل صدرها أو " الكنبوش " وهو خمار لتغطية الوجه وجمعها " كنابيش " .ومنهن من ترتدى اليشمك الأسود وارد تركيا تتوسطه القصبة الذهب المخروطية التى تغطى أنفها، أو الإيشارب من حرير ملوّن شفاف يغطى الوجه ولا يغطيه، فملامح الوجه كلها ظاهرة جليّة.

***

وتنوعت اللغات واللهجات. العربية بجانب التركية والفرنسية والانجليزية واليونانية. واللهجة المغربية بجانب اللهجة السودانية والمصرية.

والكل متفاهم، والكل يعمل، والكل يكسب (الدراهم النقره – ثلثاها فضه وثلثاها نحاس وتطبع بدور الضرب بالسكّة السلطانية – والدينار المشخّص – عمله أجنبيه مرسوم على أحد وجهيها صورة ملك الدولة التى ضربت فيها).

وأصدر العثمانيون المراسيم التى تسمح لليهود بشراء الأراضي وعقد الإتفاقات مع الدول الغربية. وجرى فى أيديهم ال " زر " أي الذهب. فى ظل سماحة الحضارة الإسلامية.

***

وكان لكل حرفةٍ شيخها المسئول عنها وعن الذين يزاولونها، ولكل حرفةٍ مقهى خاص بأصحاب الحرفة الواحدة، فيَسُهُل على من يقصد أهل حرفة معينة أن يجده فى مكان معين. ومن ميزة وجود كل فئة فى قهوة معينة أن يجعل حسابهم فيما بينهم عسير، فهم ينتقدون بعضهم البعض فى جلساتهم هذه، فيمتدحون ويذمون، وهذا يثرى المهنة، ويحفز على الإتقان، ويتعلم المبتدءون من المحترفين أصول المهنة الصحيحة.

***

كذلك تجاورت الكنائس والمساجد ودور العبادة، فكان مسجد المحلى والجندي (1721 م) والمشيد بالنور ودومقسيس (1714 م) ... تتجاور مع كنيسة مار مرقص. وكنيسة الأروام الأرثوذكس. وأصدر العثمانيون المراسيم التى تسمح لليهود بإقامة المعابد.

***

ولم تكن نساء رشيد أقل حظا من رجالها. فكان نظام بناء المنازل يهتم بتوفير الجمال والراحة لساكنيها. فكانت الطوابق متعددة، والسقوف عاليه وقد زركشت السقوف والحوائط، والدواليب فى الحائط تعطى اتساعا فى مساحة الحجرات، مع وجود مشربيات تتيح لمن هو داخل البيوت التعرف على ما يحدث خارجها.

كذلك وجود حجره للأغانى فى البيوت تجتمع فيها النساء، يعزفن الموسيقى على آلات مثل " الجينك " وهي آله موسيقيه على شكل رباعي. و " الدبادب " جمع " ديداب " وهى الطبلة. واستخدام " الكوسات " وهي صنوجات نحاسيه. هذه الآلات قد تصاحب " العوديّه " أثناء الغناء. والعوديّه هى المطربة التى تجيد الضرب على العود.

***

إلى جانب ذلك، نظمت العائلات لقاء أسبوعي، تجتمع فيه النسوة فى بيت إحداهن فى يومٍ معينٍ من كل أسبوع، يتدارسن كتاب الله وسنة نبيه، ويتجاذبن الحديث، ويستعرضن الأحداث، ويسردن الحكايات، ويتعاطين الشعر والأدب.

فى هذا المستوى من الثقافة كانت بنات الأسر الراقية يتشربّن السلوك الراقي، والأخلاق المهذّبة. وبدأن يتعلّمن اللغات الأجنبية، كالتركية – لغة الحكام – والفرنسية والإنجليزية واليونانية، لغة الوافدين الجدد.

تثقّفت إذن بنات العائلات بهذه الثقافة، وتأثرن بهذا الأسلوب فى الحياة، فكنّ على أرقى مستوى ثقافي واجتماعي. فبجانب لغتها العربية وحفظها لسور القرآن الكريم والأحاديث النبوية وعلوم الدين من فقه وفرائض، وعلوم الأدب من شعر ونثر، كانت فتيات هذه الأسر فى رشيد تجدن لغة أجنبيه أو لغتين. وسمحت لهن الوكالات التجارية المنتشرة من التعرف على أحدث أزياء ذلك العصر فى الدول الأجنبية، من ملابس وعطور ومستلزمات زينة النساء. وكثيرا ما تستهوى النساء هذه المستلزمات، فى كل عصر ومصر.

فليس غريباً إذن أن يختار مينو – الحاكم الفرنسي – من سبع سنواتٍ مضت زوجة له من بنات رشيد .. ثقافةً وتمدّناً ورقيا، وتصبح بذلك سيدة مصر الأولى.(كما نطلق اليوم على زوجة حاكم البلاد)

***

تلك هي رشيد ذلك الزمان .. أوائل القرن التاسع عشر .. زمن حملة فريزر : تميزٌ فى المكان. ورُقيّ فى السكان.

***

وعلى مشارف رشيد فى بساتين النخيل، حيث يسكن الفلاحون. وفى حارات وأزقة رشيد حيث يسكن الفقراء من صيادين وأصحاب حرف وعمال .. كان القدر ينسج لهم دورا بطوليا يقومون به ضد هذه الحملة الإنجليزية .. وليكتب ما قاموا به فى سجل الأبطال.

كتب عليهم – وهم الفقراء – أن يدافعوا عن ثراء وأثرياء المدينة. لم يثنهم عن ذلك فقرهم وانعدام الأسلحة فى أيديهم. لم يوغر صدورهم الحسد ولا الحقد ضد

هؤلاء الأغنياء. فلم يستكينوا ولم يتقاعسوا .. فرشيد تواجه عدوا مسلحا .. فمن يدافع عنها غير أبنائها الرشايده ؟ وإذا لم يكن معهم سلاح .. فلتكن حرباً شعبيه. فالتفوا حول زعيمهم الروحي الشيخ حسن كريت، وبقية العلماء، فى المساجد يزكى فيهم روح النضال .. ويبين ما أعده الله للمجاهدين من نعيم مقيم.

ومن حسن الحظ أن محافظ رشيد فى ذلك الوقت : على بك السلانكلى كان رجلا شجاعا تقياً، تأثر بأفكار الشيخ حسن كريت فى الجهاد وابتغاء مرضاة الله بالإحسان إلى خلق الله .. فكان ما كان من انتصارهم جميعا على الحملة الانجليزية عام 1807.

***

ثغر رشيد :

رشيد من البلاد التى يطلق عليها إسم " ثغر " .. والثغر فى اللغة هو ما تقدَّم من الأسنان. وماتقدم من الأسنان يتصدى ويكسر ويقطع ويمزق .. فلا يستطيع أن يدخل إلى الجسم دخيل دون المرور عليها.

والثَغراصطلاحاً : موضع المَخافة من فُروج البُلدان. والثُغرة: فتْح أو كسْر .. وكلنا يعرف ما وقع لنا عندما حدثت الثغرة فى حرب 1973.

***

والثغور فى المفهوم العسكري الاسلامي هي البلاد التى تقع على حدود الدولة الاسلامية والمتاخمة لبلاد الأعداء .. أي أن الثغور هي بلاد الجبهة مع العدو. وهي الباب الذى يجب أن يوصد جيدا .. ويحصّن جيدا .. ويزود دائما بمقاتلين أمناء على وطنهم .. أشداء على أعدائهم.

فكان لزاماً على كل من تولى حكم مصر فى تلك العصور – حيث الجنود يسيرون على الأرض : مشاةً وفرسانا ، لا طائرات ولا صواريخ – أن يولى رشيد، وما شابهها من مدن الثغور، عناية حربية خاصة.

ومن هنا جاءت الصبغة العسكرية التى تؤثر بالضرورة على سكان هذه المدن.

لماذا فكر فريزر فى احتلال رشيد ؟

عندما احتلت الحملة الانجليزية مدينة الاسكندريه بدأت الرسائل والنصائح تنهال على الجنرال فريزر قائد الحملة من رجال انجلترا المقيمين بمصر بحكم عملهم وهم أدرى بشئونها الداخليه .. ومن هؤلاء مستر " ميسيت " الملحق الانجليزي في القاهرة، ومستر " بتروتشى " القنصل الانجليزي فى رشيد. فبماذا نصحاه ؟

جاء فى تقاريرهما إلى الجنرال فريزر أن رشيد تتحكم فى مجرى النيل من الشمال وكل المعونات الآتية من مدن الدلتا للإسكندرية التى احتلها فريزر، لابد وأن تمر عليها. ولهذا فمن الضرورى احتلال رشيد إذا أراد تأمين بقائه بالإسكندرية.

***

خصوصية أهل رشيد :

فى رشيد شعبٌ .. النضال فيه فطرة .. والجهاد فيه غريزة. تجرى فى عروقهم جينات نضالية ورثوها عن الأجداد.

فكيف كان ذلك كذلك ؟

كيف وُجدت هذه الجينات النضالية الوراثية فى نسيج أهل رشيد ؟

للإجابة على هذا السؤال، تعالوا معا نقرأ تاريخ هذه المدينة المناضلة.

تاريخ رشيد الحربي على مر عصور الحكم الإسلامي :

لقيت رشيد عناية فائقة بسبب موقعها الحربي على مدى عصور الحكم الإسلامي فعندما جاء عمرو بن العاص إلى مصر بجيوش المسلمين عام 21 هجريه، 641 ميلادية كانت الإسكندرية هي العاصمة. وهى بحكم موقعها مدينة بحرية، ومن يرد أن يتخذها عاصمة لملكه، لابد له أن يكون متفوقا بحرياً، يملك أسطولا قوياً. ولم يكن العرب فى ذلك الوقت كذلك.

وقد دخل عمرو مدينة رشيد بعد أن فتح مدينة الإسكندرية ، وكان حاكم رشيد القبطي " قزمان " هو الذى عقد صلحا مع عمرو وبقيت الكنائس فى المدينة لمن بقي على دينه.

وقد استطاب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم سكنى مدينة رشيد، فعمروها وأقاموا البيوت وبنوا المساجد.

وأقام عمرو عاصمته الفسطاط وهي تقع على مقربة من حصن بابليون على ساحل النيل في طرفه الشمالي الشرقي.

والعاصمة الفسطاط بالداخل، بعيدة عن البحر. لكن البحر وسكانه ليسوا بعيدين عنها، فمن يستولى على رشيد .. سهُل عليه أن يصل إلى الفسطاط ! فأصبح لزاماً على عمرو أن يولى رشيد العناية الخاصة بها كثغرٍ يطل على الأعداء .. وبابٍ يدخلون منه إلى المحروسة.

***

وتوالى الولاة بعد عمرو، من أمويين وعباسيين وفاطميين وغيرهم، لكنهم جميعاً كان لهم نفس الرؤية الإستراتيجية لموقع رشيد .

فقد أقام العباسيون مايسمى ب " الرباط " لحماية الثغور، والرباط هو نوع من الثكنات العسكرية التى تبنى على حدود الدولة الإسلامية. والمرابطون هم مجاهدون رابطوا فيها ليدافعوا عن دولة الإسلام بسيوفهم. وكانت الرباطات تبنى لتفصل بين ديار الإسلام وديار الحرب .

وربما لهذا بني العباسيون فى رشيد مسجد أبى مندور فى هذا المكان الإستراتيجي بين النيل شرقاً والتل الرملي المرتفع غرباً، موقع حصين يمكّن مَن يتملكّه مِن أن تكون له الغلبة على عدوه.

ومن الملاحظ أن مسجد أبى مندور .. بعكس المساجد التى تقع على شاطئ النيل فى رشيد .. هو الوحيد الذى تتجه بوابته نحو الشمال .. نحو البحر .. كأنما أراد المرابطون بداخله أن تكون عيونهم على من يأتى غازياً من هذه الجهة .. فيهبّون لملاقاته ويفوزون بإحدى الحسنيين .. النصر أو الشهادة.

ولم يتكلف العباسيون بناء سور حول مدينة رشيد لحمايتها من الأعداء، فالتلال الرملية تفعل ذلك.

واكتفوا ببناء باب شمال رشيد، يؤدى للبحر، وباب جنوب غرب رشيد من جهة مسجد أبى مندور، ويؤدى إلى الإسكندرية يسمى الآن باب " رشيد " ينتهى عند قسم باب شرق بالإسكندرية.

يقول الدكتور محمود درويش فى كتابه " موسوعة العمارة والفنون الإسلامية بمدينة رشيد " :

(بدأت رشيد الإسلامية في الظهور عندما أمر الخليفة العباسي المتوكل ببناء عدد من الرباطات بالثغور المصرية لمواجهة الخطر البيزنطي عام 239هـ / 853م).

***

وفى عهد الدولة الفاطمية، أصبحت القاهرة عاصمة لها.اتخذت الدولة جندا من المغاربة أقاموا فى ثغر رشيد.

***

فى عهد الدولة الأيوبيه استطاع صلاح الدين الأيوبى ببصيرته النفاذه أن يجند من المصريين علماء ومتطوعين كلهم من حفظة القرآن. وفى هذا يقول معلمه القاضى شداد أنه قال يوما لصلاح الدين أنك أفضل من نور الدين محمود فقد استطعت أنت أن تفتح بيت المقدس وهو لم ينجح فى ذلك فقال له صلاح الدين لا والله بل هو أفضل منى ولكننى تنبهت لشيئ غاب عن الكثيرين، تذكرت قول الرسول الكريم عن أهل مصر " إذا فتح الله عليكم مصر بعدى، فاتخذوا فيها جنداً كثيفا، فذلك الجند خير أجناد الأرض." قال أبو بكر – رضي الله عنه – : ولم ذاك يا رسول الله ؟ قال : " إنهم فى رباطٍ إلى يوم القيامة. " صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

***

وفى العصر المملوكي استمر التهديد الخارجي لرشيد. فاهتموا ببناء القلاع ومنها قلعة قايتباي في موقع رباط المتوكل ، والقلعة التي عمرها صلاح الدين بن عرام في عهد السلطان شعبان جنوبي المدينة، وقلاع وأسوار الغوري حول المدينة.

فقد اعتاد القراصنة على أعمال السلب والنهب ، وكانوا يرسون بسفنهم على المدينة وكثيرا ما قتل القراصنة على أيدي أهلها ،

وكان أهم الحوادث التي وقعت آنذاك ما حدث عام 764 هـ (1363م) ، فقد تحدث النويري عن الغارة التى هاجم فيها القراصنة جزيرة رشيد (الجزيرة الخضراء) وأسروا منها خمسة وعشرين ما بين رجل وامرأة واستطاع أهل رشيد دحرهم وتحرير الأسرى.

***

وعندما جاء العثمانيون إلى مصر عام 1517 م، إزداد اهتمامهم بهذا الثغر- ثغر رشيد - باعتباره أول عتبه نحو القاهرة ، والأتراك أهل بحر وموانى، ويقدّرون تماما موقعا خطيرا كهذا الذى تحتله رشيد.

فلم تحظ رشيد باهتمامٍ على طول تاريخها، كما حظيت به طوال فترة الحكم العثماني، فأصبحت هي الميناء الأهم فى مصر، تأتى إليها السفن من أوربا وبلاد الأناضول والشام، محملة بأصناف البضائع، وتعود إلى بلادها محملة ببضائع جنة الله فى أرضه : مصر.

***

فى " موسوعة العمارة والفنون الإسلامية " للدكتور محمود درويش :

(وعندما خضعت المدينة - رشيد - للحكم العثماني صارت ميناء هاما ومدينة تجارية أنشئت بها العديد من المنشآت التجارية كالخانات والقياسر والوكالات إلى جانب المنشآت الصناعية كالأفران والسيارج والمعاصر والطواحين ودوائر الأرز ومعامل تفريخ البيض ، هذا فضلا عن أن المدينة قد أعيد بناؤها مرة أخرى في هذه الفترة وكثرت عمائرها السكنية والدينية ، وأصبحت من المدن التي تعددت قوميات سكانها كالأتراك والمغاربة والشاميين ، إلى جانب الوافدين إلى المدينة من جميع أنحاء القطر المصري.)

***

هكذا نشأت مدينة رشيد نشأة حربية إذ كان الرباط نواة هذه المدينة الناشئة في ظروف مليئة بالصراعات.

وقد بدأ الأثر الحربي يظهر واضحا على تخطيطها. وعكست نشأة المدينة أهمية التحصين لحماية وجودها وتنمية عمرانها. وأيا ما كانت أسباب النشأة فان التجارة لعبت دورا أساسيا فيها ، وكانت وراء تطور المدينة ونموها ، وتضمنت التجارة في ثناياها إمكان أعمال السلب والنهب اللتين أوجبتا إنشاء تحصينات دفاعية.

***

فلا غرابة أن قلت فى أول هذا البحث أن فى رشيد شعبٌ .. النضال فيه فطرة .. والجهاد فيه غريزة. تجرى فى عروقهم جينات نضالية ورثوها عن الأجداد.

***

لكن الغريب أن قادة جيوش المسلمين الذين أتوا إلى مصر على كثرتهم، لم يحاولوا العمل بوصية نبينا صلى الله عليه وسلم الذى أوصى باتخاذ جند كثيف من أهل مصر.. فلم يفكروا فى تجنيد المصريين .

وظل الأمر كذلك حتى عصر محمد علي الذى أنشأ " ديوان الجهادية " ومدرسة عسكرية وأنشأ جيشا مصريا قويا وصل إلى السودان والحجاز والشام بل إلى جنوب تركيا وكاد أن يستولى على الآستانة عاصمة الدولة العثمانية. بل إن الدولة العثمانية نفسها استعانت بالأسطول المصري ليخمد الثورة التى قامت ضدها فى اليونان.

هل تصدق أن الجيش المصري فى عهد سعيد باشا -ابن محمد على- وصل إلى أمريكا ؟ فقد اشتركت كتيبة من الجيش المصري مع قوات نابليون الثالث فى حرب المكسيك.

وقال نابليون الثالث بعد حرب المكسيك : " قبل أن تصل الكتيبة المصرية إلى المكسيك لم نحظ بانتصار واحد، وبعد أن وصلت لم تلحقنا هزيمة واحدة."

***

فماذا عن سكان رشيد زمن الحملة ؟

كان يسكن رشيد فى فترة الحملة الإنجليزية طبقات مختلفة متباينة : الحكام وأمراء الحامية وكبار التجار من الأتراك.كذلك يوجد عدد كبير من قناصل الدول الأجنبية. وهناك أيضا كبار التجار من الشوام والمغاربة والأوربيين.

وقد شهدت شوارع رشيد هؤلاء الأوربيين وعائلاتهم يلبسون الملابس المزركشة والسراويل الملونة يتكلمون بصوت مرتفع ويتضاحكون بشكلٍ غير مألوف. بل ويجلسون مع نسائهم على المقاهي ويتنزهون فى الحدائق.

ومن ناحية أخرى، كان يوجد المصريون من علماء ومشايخ وتجار. وآخرون جاءوا من كل أنحاء مصر للعمل بالتجارة فى هذا الميناء المزدهر. وهؤلاء واؤلئك يعيشون فى رحابة من العيش نسبياً.

***

وعلى مسافة سحيقه من هؤلاء كان يعيش باقى الشعب فى رشيد من فلاحين وصيادين وأصحاب حرف .. عضهم الفقر بأنيابه .. لكنه لم يكسر فيهم عزة النفس ولم يسخطهم على قسمة الله فى الرزق.

وهؤلاء هم الذين سيتصدون للعدو .. يحاربونه بأيديهم العاريه .. وقلوبهم الكاسية بثوب الإيمان.

هؤلاء السكان فى رشيد هم نسيج مصري موغل فى المصرية.

مر عليهم الفرس واليونان والرومان والعرب.والتحموا بخيرة المحاربين الأشداء من كل العالم الإسلامى الذين أقاموا فى رشيد لجهاد العدو وحرب الغزاة.

وهكذا .. ينشأ ناشئ الفتيان فينا ... على ما كان عوّده أبوه

لذلك نستطيع القول أن الدور البطولى الذى قام به شعب رشيد فى صد الحملة الإنجليزية عن مصر لم يكن وليد صدفة .. أو تهور أفراد قاموا " بهوجه " فى وجه قوة عسكرية ضخمة بكل مقاييس ذلك الزمان.

فهذا الشعب له موروث عسكري جهادي من هؤلاء الأجداد الذين سبق ذكرهم. يتعاقبون على رشيد من كل بقاع العالم الإسلامى، لاشيئ يشغلهم إلا الجهاد يبتغون به إعلاء كلمة الله. كانوا يعيشون فى أربطه يراقبون قدوم العدو نهاراً ..

ويبيتون لله ليلا سجدا وقياما. فجاء منهم هذا النسل الذى تجرى فى عروقه روح الإقدام والشجاعة.

فلايضيع شيئ غُرس فى أرض مصر.

لقد جاء إلى رشيد على مر عصور الحكم الإسلامي جنودا من جميع البقاع .. عسكروا فى ثكناتها .. وعاشوا فى أربطتها .. فغرسوا بذرة الجندية فى أرضها .. وحان قطاف ثمرة هذا الغرس : الجهاد.

فالجهاد الخالص لله ثمرة الجندية النبيلة .. فكان النصر الذى صادف أهله.

***

الموقع الإستراتيجي لرشيد :

بجانب تاريخ البلدة العسكري .. وقوة شكيمة السكان، فإن هذه البلدة .. رشيد .. قد حباها الله موقعاً فريداً. فهي تقع فى نهاية الفرع الغربى للنيل قبيل إلتقائه بالبحر المتوسط. وهى بذلك بوابة الآتى لمصر من الشمال. وما أكثر ما جاءنا من حملات عسكرية تخريبية .. ولا أقول إستعمارية .. عبر هذا البحر، ومنها حملة فريزر .. موضوع هذا البحث.

وما أكثر ما جاءنا أيضا من هجمات لقراصنة البحار .. أهل السلب والنهب. فكان لزاما على من يحكم مصر، أن يعير هذه البوابة الشمالية كبير إهتمام فيحكم إغلاقها .. ويقوى أسوارها .. ويبنى قلاعها .. ويتعهد حصونها وطوابيها .. ويعتلي تلالها وآكامها.. وأن يوفر لها .. وهو الأهم .. خيرة الجنود صلابة .. وأشجعهم قيادة .. وأتقاهم عبادة. فالنصر لايحل بأرض فساد .. كما قلنا من قبل، وكما هو معلوم بالضرورة. ورشيد .. فوق ذلك وقبله .. يحيطها من

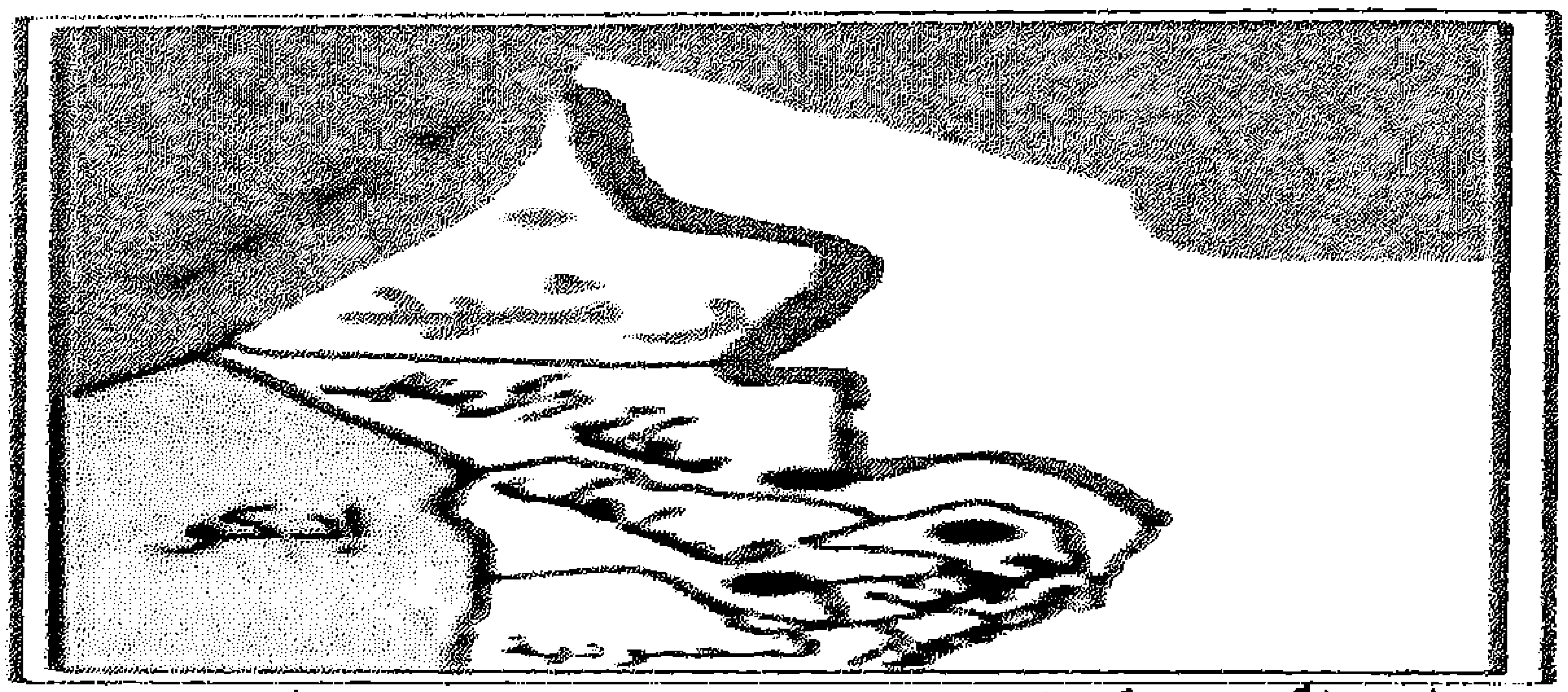

(خريطة تنين موقع رشيد الاستراتيجى .. البحر شمالا والنيل شرقا
وكثبان الرمال جنوبا وغربا)

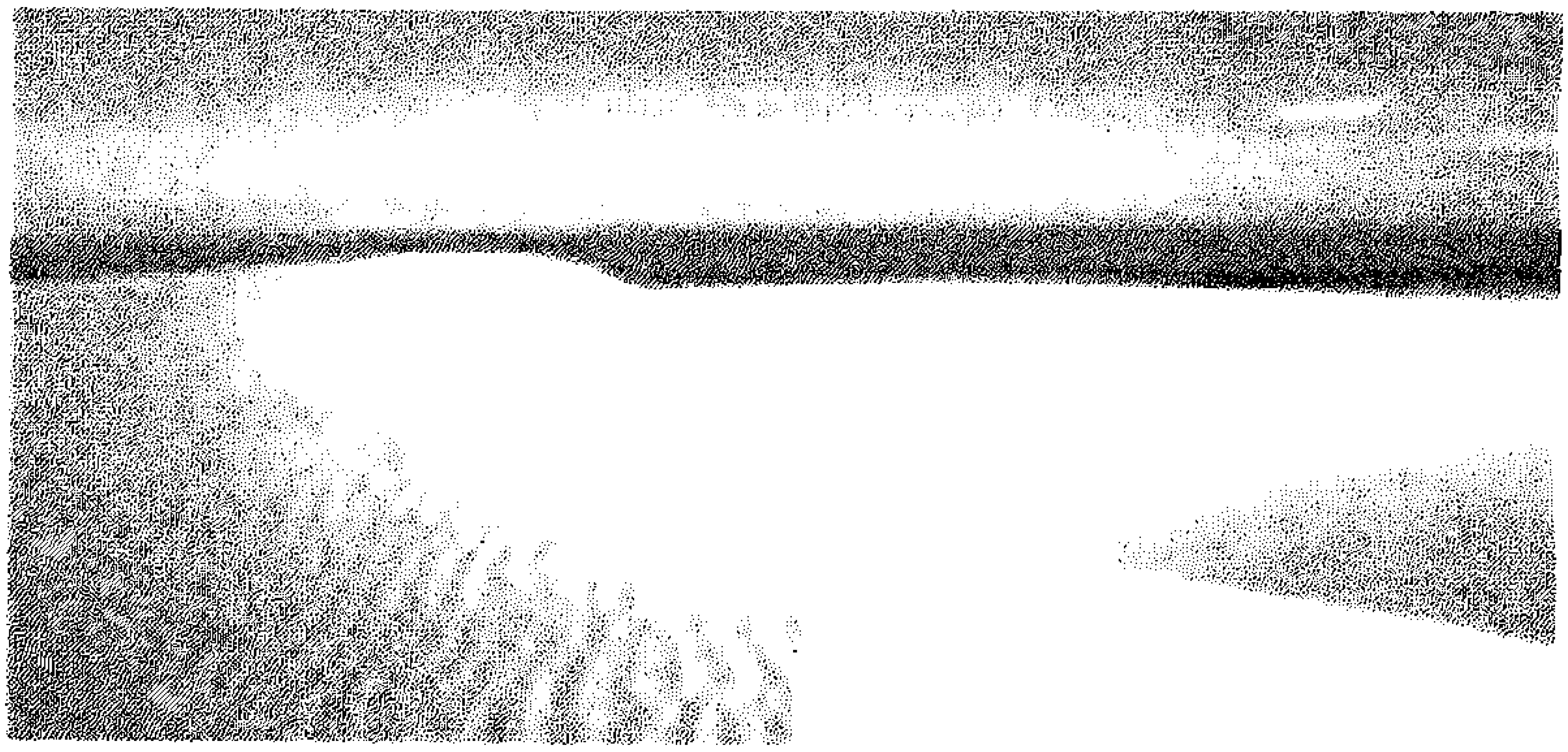

(كثبان رمليه ناعمه)

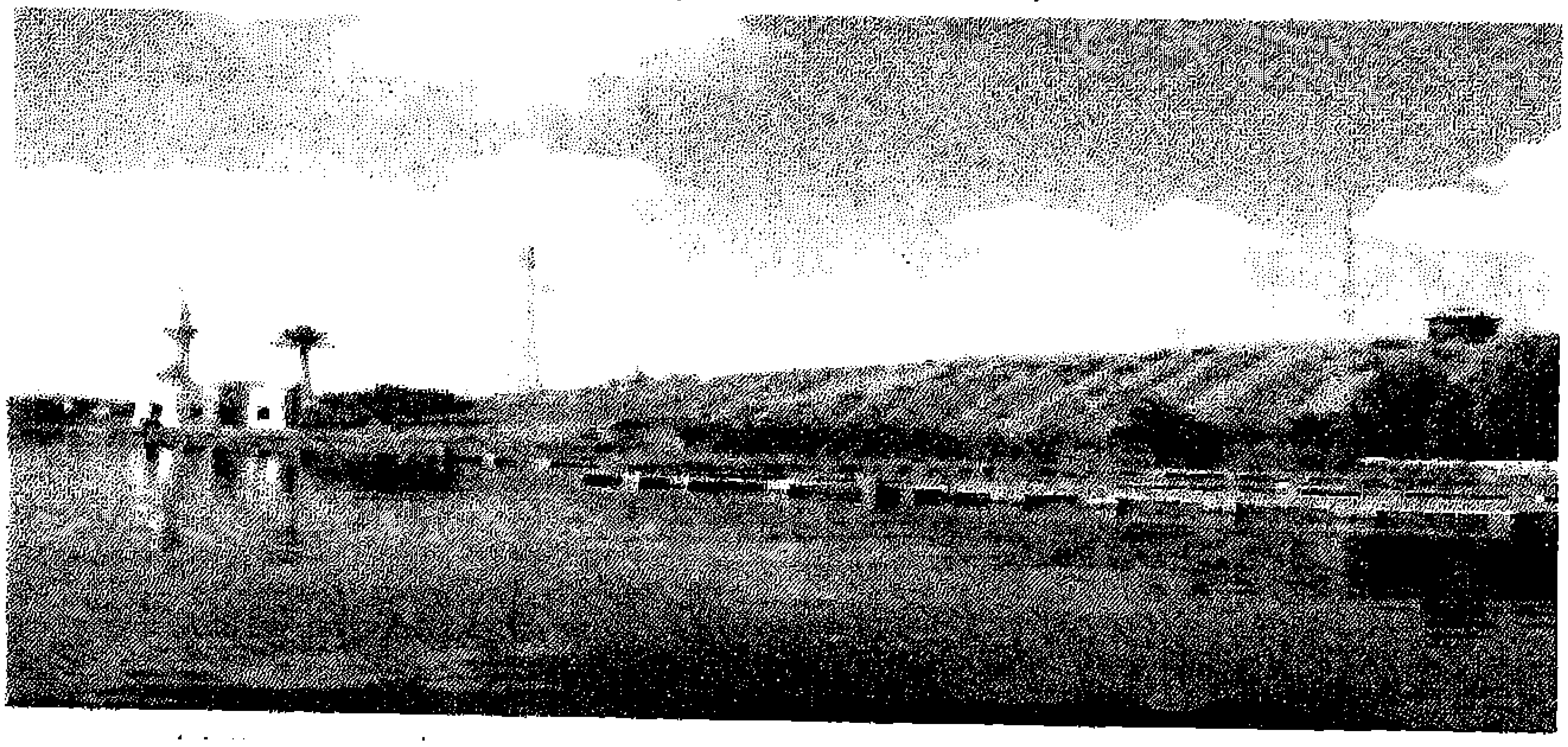

(تلال أبى مندور المرتفعة التى تشرف على المدينة وتتحكم فى مجرى النيل)

الجنوب والغرب .. تلالٌ رملية .. تكبّدُ الغازى لها مشقةً ما فوقها مشقه .. وإنهاكاً ما بعده إنهاك.

ثم إن بها تلالاً داخليه فى الجنوب تسهر على حراستها .. وقد تكون مصدر تهديد لها إذا ما وقعت فى أيدى أعدائها.. ألا وهي تلال أبى مندور. فلم يكن غريبا أن قائدين من قواد حملة فريزر يتسابقان إلى احتلال هذا التل الإستراتيجي – دون سابق إتفاق بينهما – قبل إحتلالهما لرشيد .

فالقائد " ويكوب " إحتل تل أبى مندور لتأمين قواته قبل أن يدخل رشيد.

والقائد الثانى " ستيوارت " إحتل هذا التل أيضا ونصب عليه مدافعه " وقنبر المدينة بالقنابر " وبلغ عدد القنابر التى ألقيت على رشيد فى هذه الحرب ثلثمائة قنبره (كرة من الحديد) .

ولم تختلف نظرة هذين القائدين الأوربيين– لموقع رشيد الاستراتيجي – عن نظرة قوادنا العرب العظام الذين أتوا إلى مصر مع فجر الفتح الإسلامي لها.

***

فما هي هذه الهبات التى حباها الله لرشيد ؟

هيا بنا نتعرف على هذه الهبات الإلهيه .. علنا نكون من الشاكرين.

يحدها شمالا البحر المتوسط . وهذه المنطقة من البحر ضيقة البوغاز .. أي المدخل .. فيتعذر بذلك على أي سفينة حربية كبيرة– الغليون – عبوره والدخول منه إلى رشيد .(راجع يوميات الحمله الفرنسيه).

وفى هذه المنطقه من البحر يضطرب الموج لضحالة المياه بجوار الشاطئ بسبب الرمال الكثيفة والطمي الذى كان النيل يلقى به كل عام على شواطئه. لذلك تخشى السفن من الجنوح – تشحط – فى هذه المنطقة .. فلا تجرؤ السفن الحربية كبيرة الحجم على الإقتراب من الشاطئ. (بل إنه كثيرا ما كانت السفن التجاريه المحملة بالبضائع المتجهة إلى ميناء الاسكندرية، تجنح أمام شواطئ رشيد فيأتى موظفو الجمرك من الاسكندرية لتقدير رسوم البضائع التى تحملها السفينة الجانحة، ثم يفرغون الحمولة فى سفن صغيرة ليخف حملها).ولهذا كانت الحملات العسكرية، سواء الفرنسية أو الإنجليزية ترسوا بسفنها جهة العجمي .. ثم يأتى إليها الجنود

سيراً على الأقدام يحملون عتادهم وعدتهم الثقيلة من الناحية الجنوبية الغربية لرشيد.. وهو ما حدث مع حملة فريزر .. موضوع هذا الحدث والحديث.

فإذا ما جاءها الغازي من الجهة الجنوبية الغربية، كان عليه أن يخوض بحراً آخر .. لكن من تلال الرمال الناعمة و. هي تلالٌ فى جملتها تمتد من الغرب إلى الشرق .. أي أن من يأتى رشيد غازيا عليه أن يصعد ويهبط هذه التلال .. بمعداته الحربيه .. وأحماله الثقيله. خط من الكثبان الرمليه الناعمه تغوص فيها أقدام السائرين عليها، فيتعذر تقدمهم. وكانت هذه التلال الرملية المرتفعه فى بعض الأماكن بمثابة أسوارتحيط برشيد من جهة الجنوب والغرب. فإذا قدّر للعدو إجتياز المانع الأول والثانى، ودخل المدينة .. وجد تلاً مرتفعا يمتد هذه المرة من الشمال إلى الجنوب .. ذلكم هو تل أبى مندور.وهو تل مرتفع. يشرف على النيل، فيتحكم فى حركة السفن فى النهر.

ويشرف على المدينة فتصبح فى مأمن إذا كان من على التل هم جند رشيد. وتصبح فى خطر إذا كان من على التل عدوٌ لها. لأنها بذلك ستصبح فى متناول نيران العدو. فمن يستولى على تل أبى مندور أولا .. يمكن أن تكون له الغلبة .

وأما من جهة الشرق ، فيحيط برشيد من الجنوب إلى الشمال حتى البحر المتوسط، مانع مائي ضخم هو : نهر النيل.

وقد لايكون مانعا أيام السلم .. بل هو أداة إتصال جيدة بمدن الدلتا الواقعة على النهر حتى القاهرة ..ومن القاهرة إلى جنوب الوادى حتى آخر مدينه مصريه على نهر النيل.

فلرشيد موقع استراتيجى فريد .. كأنما فصّل لها تفصيلا.

الباب الرابع

الحملة الإنجليزية الأولى على مصر

(حملة فريزر)

(شهر المحرم 1222 هجريه / مارس 1807 م)

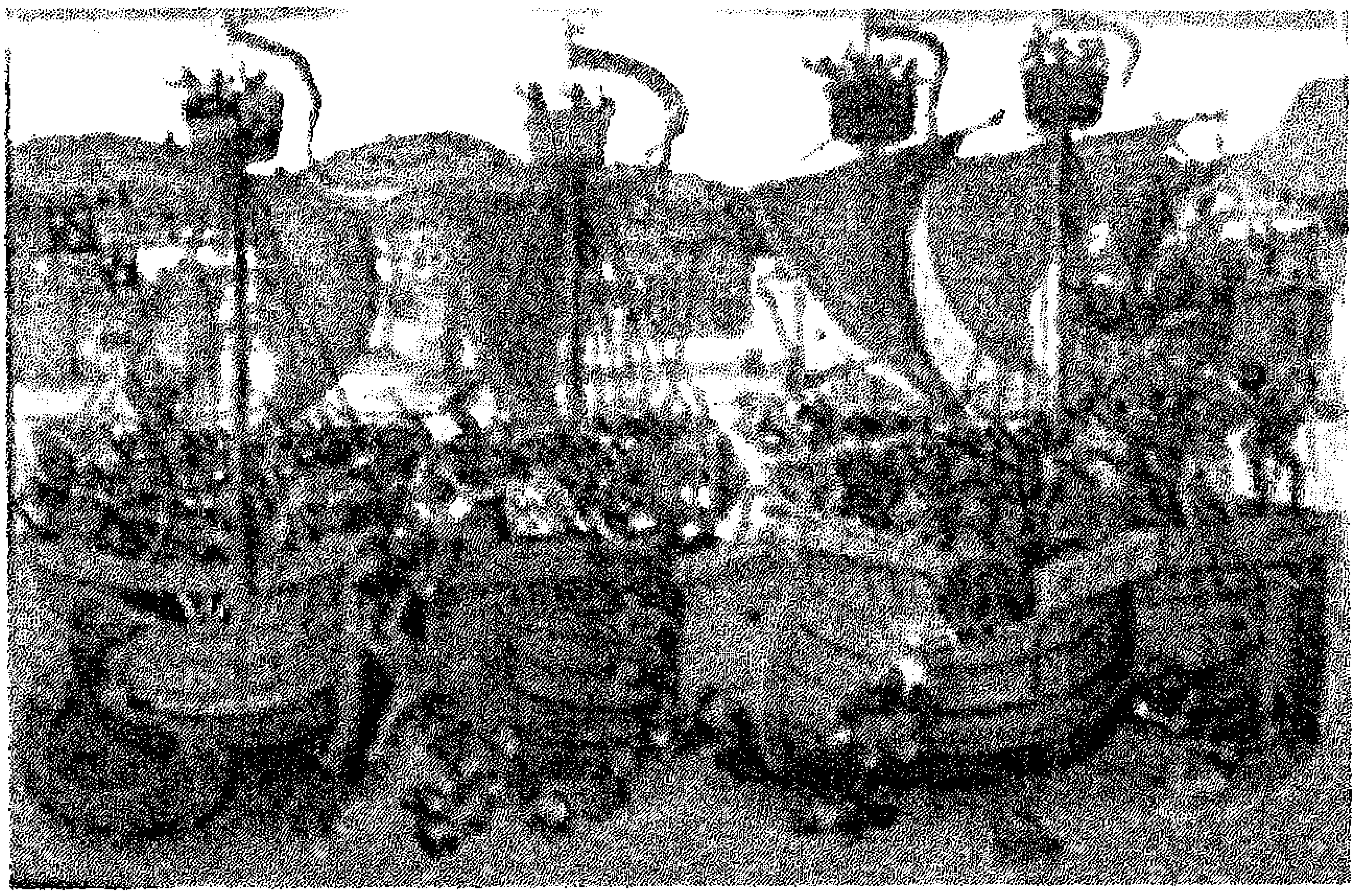

حملة فريزر على مصر :

أبحر نحو 30 سفينه من الاسطول البريطانى تجاه مصر. وصلت إلى الأسكندريه فى 2 فبراير 1807. كانت الحملة الانجليزية مؤلفة من أكثر من 6000 مقاتل ويتألف هذا الجيش من فرقتين. الأولى بقيادة الجنرال ستوارت والأخرى بقيادة الجنرال ويكوب.

والحملة بقيادة الجنرال (الفريق أول) ماكنزى فريزر.

•••

فمن هو جنرال فريزر ؟

Lieutenant General Alexander Mackenzie-Fraser (1758 - 13 September 1809) was a British General. He was known as *Mackenzie* until he took additional name of *Fraser* in 1803.

هو الكساندر ماكنزى فريزر. ولد في أبردينشايرفي اسكتلندا، وتلقى تعليمه في جامعة أبردين. ثم إلتحق بالجيش البريطاني عام 1778 .

ظهر تميزه في حصار جبل طارق العظيم. ثم شارك في حرب الاستقلال الأمريكية، وجرح فيها، ثم شارك في الحملة البريطانية في فلاندرز (1774-1775)، حيث شارك تحت لواء دوق يورك .وشارك أيضًا في حملة رأس الرجاء الصالحعام 1796، وخدم فيالهند من عام 1796 حتي عام 1800 .

من عام 1803 حتي عام 1805، تم تعيينه في هيئةالأركان الرئيسية، ثم أصبح القائد المؤقت على كتائب المشاة (هانوفر) في فيلق الملك الألماني عام 1805.

في عام 1806، خدم تحت إمرة الجنرال هنري جيمس كريغ فيالغزو الأنجلو-روسي لنابولي، وخدم في صقلية.

•••

(أوردت هذه السيرة العسكرية للرجل الذى قاد الحملة على مصر ولكنه هزم فى رشيد على يد أبنائها .. رغم سجله الحافل بالبطولات ! خاض حروبا كثيرة كان النصر فيها حليفه .. من حصار جبل طارق إلى حرب الاستقلال الأمريكيه إلى رأس الرجاء الصالح فى أقصى جنوب قارتنا الإفريقية .. سجل ناصع يتمناه إي رجل عسكري .. لكن حظه السيئ أوقعه فى الرشايده !)

...

أسباب حملة فريزر على مصر :

ترجع أسباب حملة فريزر على مصر، إلى تدهورالعلاقات بين انجلترا والدولة العثمانية - تركيا- وما اعتراها من الجفاء والعداء لانحياز تركيا الى جانب فرنسا- عدو انجلترا اللدود - .

فاتفقت انجلترا وروسيا على الكيد لها، وساءت العلاقات بين الدولتين حتى انتهت باعلان الحرب ، ودخل الاسطول الإنجليزي بقيادة الاميرال دوكورث بوغاز الدردنيل فى تركيا. واعتزمت انجلترا أن تضرب تركيا في مصر فتنال بذلك غرضين وهما إذلال تركيا من جهة وتحقيق اطماعها في مصر من جهة أخرى.

...

الأهداف المراد تحقيقها من الحملة :

1- الإستيلاء على ممتلكات الدولة العثمانية قبل أن تستأثر بها فرنسا وحدها خاصة وأن العلاقات بين الدولتين كانت تزداد قوة !

2-مساعدة المماليك من حكم مصر.

3-الحصول علي امتيازات داخل مصر.

4-ثم لكي تؤمَن انجلترا طريق مواصلاتها إلى مستعمراتها فى الهند وخوفاً من خطرٍ جديد فى مصر بدأ يرفع رأسه على إستحياء .. وإن كان قويا ظاهرا. ذلك

هو ظهور محمد علي على مسرح الأحداث فى مصر التى رسموا لها دوراً، فجاء محمد علي وغير الأدوار.

...

يقول الرافعى فى كتابه (تاريخ القومية العربية) :

" بالإضافه إلى أن إنجلترا قد أصيبت بصدمة عندما علمت بتنصيب زعماء الشعب لمحمد علي واليا على مصروموافقة السلطان العثماني على ذلك. لأنها تعرف أن محمد علي ليس بالشخصية السهلة التي تكون أداة طيعة في يد إنجلترا. لذلك حاولت إنجلترا إقناع السلطان العثماني بخلع محمد علي و إسناد الولاية لمحمد الألفي أو أي وال آخر. "

وجاء ذلك صراحة فى كتبهم :

"Seeking to replace Muhammed Ali with a puppet ruler favorable to British interests, Britain invaded withnearly 5,000 troops on March 17, 1807."

" كانوا يريدون استبدال محمد علي بشخص آخر يكون فى يدهم كالدمية، يرعى مصالح الإنجليز، لذا غزت بريطانيا مصر بما يقارب 5000 جندى فى 17 مارس 1807. "

...

درس من التاريخ : هكذا الغرب دائما .. كان ومازال وسيظل .. لا يريد أن يكون حاكم مصر، حاكما قويا .. ولا مصر قوية ! وإذا حدث وحكمها حاكم قوي .. تآمرت عليه حتى تتخلص منه .. راجع تاريخ زعماء مصر فى العصر الحديث.

...

وصول الحملة إلى شواطئ الاسكندريه (العجمى):

في أوائل مارس سنة 1807 أقبلت سفينة إنجليزية الى مياه الإسكندرية دون أن تخبر بأسباب حضورها، ولعلها كانت سفينة إستطلاع لتعرف الحالة في الثغر.

فلما كان يوم 14 مارس جاءت سفينة حربية أخرى واستدعت القنصل الإنجليزي فلبى الدعوة ومضى مسرعا لمقابلة من فيها. ولم يكد يعود الى الثغر حتى بادر بإنفاذ عدة من السعاة يحملون رسائل الى جهات بعيدة.

وقد ظن الأهالي أن هذه الرسائل مرسلة الى الرعايا الإنجليز لاستدعائهم الى الثغر. ولكن تبين بعد ذلك أنها مرسلة الى البكوات المماليك في الصعيد لإخبارهم بقرب وصول الحملة البريطانية واستدعائهم الى الوجه البحري.

يقول الجبرتي في هذا الصدد: " وبعد موت الألفي – زعيم المماليك بنحو الأربعين يوما وصلت نجدة الإنكليز الى ثغر الإسكندرية وطلعوا اليها فبلغهم عند ذلك موت المذكور، فلم يسهل بهم الرجوع فارسلوا الى الجماعة المصريين (يقصد المماليك) ظانين أن فيهم أثر الهمة والنجدة يطلبونهم للحضور ويساعدهم الإنكليز على ردهم مملكتهم".

...

الإتصال سراً بين الحملة وأمين أغا :

وقامت الحملة بالإتصال سرا بأمين أغا حاكم الإسكندرية يفاوضونه على تسليم المدينة إليهم.

وبعد مفاوضات صورية استسلم أمين أغا وحامية المدينة المكونة من 300 جندي بدون مقاومة ليلة 21 مارس .

وأمين أغا هو من ضباط الآستانه – عاصمة الخلافه العثمانيه – أي من الضباط الخاضعين مباشرة للسلطان العثمانى أو الباب العالى. لأن الخلافة العثمانية كانت

تعد الاسكندريه إلى ذلك العهد تابعة لها مباشرة، وليست تابعة للوالى العثمانى فى مصر.

...

إن إعتماد الانجليز على قوات المماليك في مصر، جعلهم لا يصحبون معهم قوة من الفرسان إكتفاءً بما يمدهم به حلفاؤهم المماليك. وجازف الإنجليز بهذا العدد الضئيل من الجنود لاحتلال مصر. في حين أن نابليون بونابرت لم يقدم على غزو مصرإلا بجيش مؤلف من 36000 جندى وأسطول بحرى ضخم.

فعل الإنجليز ذلك معتقدين أنهم لن يلبثوا أن يطأوا أرض مصر حتى يسارع اليهم المماليك من أنحاء البلاد لملاقاتهم والإنضمام اليهم، فلما دخلوا الإسكندرية ولم يروا للمماليك اثرا، أرسلوا اليهم القنصل الإنجليزي يطلب من زعمائهم الحضور ليلتقوا بمنقذيهم وحماتهم.

...

الأهالى يرفضون مددا من عسكر الباشا خوفا من الفساد والإفساد

: عندما علم السلطان العثمانى بمجيئ الحملة ،عرض أن يرسل قوات لتساعد فى صد الحملة .. ولم يقبل الأهالى أن يطلبوا المدد من جنود القاهرة لما اشتهروا به وقتئذ من النهب والسلب اذ كان معظمهم من الأرناؤوط – سكان ألبانيا – والدلاة وأخلاط السلطنة العثمانية. فآثر الأهالي أن يتولوا الدفاع عن المدينة بأنفسهم واحتملوا معظم العبء في المقاومة والقتال.

قال الجبرتي في هذا الصدد: "وفي يوم الثلاثاء 7 محرم سنة 1222 (7 مارس سنة 1807) عملوا جمعية ببيت القاضي حضرها المشايخ والأعيان وذكروا انه لما وردت الأوامر بتحصين الثغور أرسل الباشا (محمد علي) سليمان أغا ومعه طائفة من العسكر وأرسل الى أهالي الثغور والمحافظين عليها مكاتبات بأنهم إن كانوا يحتاجون الى عساكر فيرسل لهم الباشا عساكر زيادة على الذين أرسلهم، فأجابوا

بأن فيهم الكفاية ولا يحتاجون الى عساكر زيادة تأتيهم من مصر فانهم اذا كثروا في البلد يأتي منهم الفساد والإفساد ، فعملوا هذه الجمعية لاثبات هذا القول".

يتبين من نلك أن الاهالي أبوا أن يطلبوا النجدة من العسكر إتقاء لما يقع منهم من الفساد وانهم فضلوا الإعتماد على النفس .. على أن يطلبوا عساكر " الباشا " خوفا من الفساد والإفساد !!

درس من التاريخ : إذا أردنا أن ينصرنا الله .. فلنطهر نفوسنا وأموالنا ونصلح ما بيننا .. فيصلح الله ما بيننا وبينه.

...

الحاميات العسكريه التركية تفر من مقاومة الإنجليز :

ومما يؤيد تلك الحقيقة ان وقائع الحملة تدل على أن الحاميات العسكرية قد فر معظمها من الميدان ولم تواجه الجيش الإنجليزي. فقد رأينا ما فعله أمين أغا حاكم الإسكندرية وحامية المدينة من التسليم وكذلك فعلت حامية دمنهور فإنها لما بلغتها أخبار احتلال الإنجليز الإسكندرية أخلت دمنهور وانسحبت القوة ! وحاول أهل دمنهور أن يثنوهم عن عزمهم وحرضوهم على البقاء بالمدينة لمقاومة الإنجليز، فأبوا إلا الهرب وأرسل الأهالي الى السيد عمر مكرم ينبؤونه بفرارهم، قال الجبرتي في هذا الصدد:

"وفي 17 محرم سنة 1222 ورد مكتوب من أهالي دمنهور خطابا الى السيد عمر النقيب مضمونه أنه لما دخلت المراكب الإنكليزية الى الإسكندرية هرب من كان بها من العساكر وحضروا الى دمنهور فعندما شاهدهم الكاشف (الحاكم) الكائن بدمنهور ومن معه من العسكر إنزعجوا إنزعاجا شديدا وعزموا على الخروج من دمنهور. فخاطبهم أكابر الناحية (الأعيان) قائلين لهم كيف تتركونا وتذهبون ولم

تروا منا خلافا وقد كنا فيما تقدم من حروب الألفي من أعظم المساعدين لكم فكيف لا يساعد الآن بعضنا بعضا في حروب الإنكليز؟ فلم يستمعوا لقولهم لشدة ما داخلهم من الخوف وعبوا متاعهم وأخرج الكاشف أثقاله وجبخانته ومدافعه وتركها وعدى وذهب الى فوه من ليلته ثم أرسل ثاني يوم في أخذ الاثقال، فهذا ما حصل أخبرناكم به".

درسٌ من التاريخ : لن يدافع عن مصر إلا أبناءها. لا ننتظر أحداً يحارب لنا معركتنا !

...

موقف المماليك :

كان المماليك حلفاء الإنجليز قد تشتتت كلمتهم بعد موت زعيمهم محمد بك الألفي فى يناير 1807 أي قبل وصول الحملة ! وكان المماليك عند دخول الإنجليز إلى الإسكندريه يحاربون محمد علي فى الصعيد.

فلما علم محمد علي باحتلال الإنجليز للإسكندريه، خشي أن يجتمع عليه الإنجليز والمماليك، فاتفق مع المماليك على أن يترك لهم الصعيد حسب رغبتهم يحكمونه ويدفعون له الخراج على أن يعاونوه فى مقاومة الإنجليز. وكان يهدف من ذلك إلى التصالح معهم حتى تأتى الفرصة المناسبة.

يقول الجبرتي فى هذا الصدد :

(.. حتى أن محمد علي باشا لما بلغه حصولهم بالاسكندريه وكان يحارب المصريين – أي المماليك – ويشدد عليهم فعند ذلك انحلت عزائمه وأرسل يصالحهم على مايريدونه ويطلبونه وثبت فى يقينه إستيلاء الإنكليز على الديار المصرية وعزم على العود متلكئا فى السير يظن سرعة ورودهم إلى المجينه – القاهرة – فيسير شرقا على طريق الشام ويكون له عذر بغيبته فى الحمله.)

أما المماليك فقد خشوا من اتهامهم بالخيانة لو أنهم رفضوا الصلح مع محمد علي فى الوقت الذى يهاجم فيه الإنجليز مصر.

لكنهم كانوا يتربصون .. فإن انتصر محمد علي على الإنجليز فهم معه وعلى حلفهم .. وإن هُزم فإنهم حينئذ يستطيعون الإنضمام للإنجليز .

•••

فمن هو محمد بك الألفي ؟

محمد بك الألفي من أمراء المماليك. كان من كبار مماليك مراد بك. وعند مجيئ الحملة الفرنسية على مصر 1798، فر مع مراد بك إلى الصعيد.

إتخذ نابليون بونابرت من قصر الألفي فى الجيزة مقراً لإقامته. وبعد أن تحالف مراد بك مع الفرنسيين، والذى بموجبه أصبح مراد بك حاكماً للصعيد، اعتزله الألفي واستمر فى قتاله للفرنسيين.

وعند قدوم الإنجليز لمصر لإخراج الفرنسيين منها، تحالف الألفي مع الإنجليز.

إلا أنهم بعد خروجهم من مصر عام 1801 أصبح فى مواجهة مباشرة مع الأتراك، فلجأ إلى الصعيد.

واستمر فى مراسلة الإنجليز يدعوهم للعودة إلى مصر لكي يساعدوه فى انتزاع عرشها الذى اعتلاه محمد علي .

إستطاع الألفى هزيمة جيشين وجّهها محمد علي لقتاله فى بنى سويف والرحمانية، إلا أنه توفي فى 28 يناير 1807 أثناء عودته إلى الصعيد بعد إخفاقه فى حصار دمنهور، وقبل وصول حلفائه الإنجليز فى حملتهم على مصر فى مارس 1807.

•••

يقول الاستاذ محمد سعيد حميده فى كتابه " تاريخ دمنهور " :

(رحل الألفي مع الإنجليز بعد خروج الفرنسيين من مصر، وعاد إليها بعد أن اتفق معهم على تسليم مصر لهم. وظل ينتظرهم ويعد العدة لاستعادة نفوذه على قواته. حاصر الألفي دمنهور لتكون قاعدة يستقبل فيها حلفاءه الإنجليز عند حضورهم إلى مصر. لكن الأرناؤوط - جنود محمد علي - قاوموه

وتحصنوا فى داخلها وقاوموه وتحركت قوات محمد علي من الرحمانية إستعدادا لقتال الألفي، فاضطر إلى رفع الحصار عن دمنهور.
وظل الحال كذلك بين نصر وهزيمة حتى بلغ حصاره لدمنهور ثلاث مرات ..
وقف فيها المجاهدون من أهل دمنهور رجالا ونساء وشيوخا وأطفالا وقفة رجل واحد فلم ينل منهم الألفي أي منال. وفى خضم هذه الأحداث جاء فرمان السلطان باستمرار محمد علي واليا على مصر كلها فيما عدا الثغور (رشيد ودمياط والاسكندريه) التى ظلت تابعه للباب العالى – السلطان – .
لهذا لم ير الألفي بداً من الإرتداد عن دمنهور مخذولا ولاذ بالفرار إلى الصعيد فمات به مهموما مغموما فى 28 يناير 1807 .)

•••

تقارير من القنصل الانجليزى برشيد إلى فريزر بالاسكندريه :

لكي تكون مستقراً بالإسكندرية، لابد لك من إحتلال رشيد !

وفى الإسكندرية .. كان الجنرال فريزر قد تلقى تقريرا من قنصل انجلترا برشيد المستر بتروتشى عن الحالة فيها وإحصاء مابها من القوات التركية.
وصادف أن اتفقت التقارير الواردة من هذا القنصل الإنجليزى فى رشيد، مع تقارير الملحق العسكري الإنجليزي فى القاهرة مستر Missett. والذى أخذ يقنعه بأن :

(To strengthen his argument Missett informed Fraser that the defences of Rosetta were in a dilapidated state and Mohammed Ali's Albanians were mere rabble. There was no argument against the 40 miles to Rosetta or the even more distant Rahmanieh nor the fact the capture of either or both of these targets would almost strip Alexandria of the very troops meant to occupy it.)

والترجمه تقول :
" .. الإسكندرية لن تصمد معه دون احتلال رشيد أو الرحمانية. ولتقوية حجته، أخبر ميسيت جنرال فريزر أن وسائل الدفاع عن رشيد فى حالة سيئة وأن جنود

محمد علي الألبان هم مجرد قوات همجية. وليس هناك مشكلة فى عبور ال 40 ميلاً التى تفصل الإسكندرية عن رشيد أو حتى عبور المسافة الأطول إلى الرحمانية وأن احتلال أحد هذين الهدفين (رشيد أو الرحمانيه) أو كلاهما لن يؤثر على القوات التى جاءت لإحتلال الإسكندرية. "

...

وبدأت الحيرة تنتاب الجنرال فريزر، فالخطة التى كُلف بها من رؤسائه فى لندن هي إحتلال الإسكندرية والتعاون مع حلفائه المماليك بعد ذلك لتنفيذ باقى المهام. لكنه الآن إزاء سيل التقارير من الملحق العسكري والقنصل فى رشيد ينصحانه بضرورة تأمين الحملة فى الإسكندرية. تعالوا نقرأ ما جاء فى مراجع الإنجليز عن هذا الموقف الصعب الذى يواجهه الجنرال فريزر فى بداية دخوله مصر:

(Fraser was now in a particularly difficult position, he had been ordered by his masters in London to only capture Alexandria.but had been informed by Britain's man on the spot that it couldnot be held without the capture of Rosetta or Rahmsnieh.)

تقول الترجمة :

(إن فريزر الآن فى موقف صعب للغايه، فقد أمره رؤساؤه فى لندن باحتلال الاسكندريه فقط، لكن رجل بريطانيا الموجود فى موقع الأحداث بمصر " ميسيت " يخبره بضرورة تأمين الحملة فى الاسكندريه باحتلال رشيد أو الرحمانيه أو كلتاهما.)

* * *

وهكذا زين ميسيت للجنرال فريزر احتلال رشيد أو الرحمانية أوهما معا .. الأولى لتمد قواته بالخضار والفواكه، والثانيه لتمدهم بالمواشى واللحوم !

وهكذا تقرر الزحف على رشيد لتأمين حملتة بالإسكندرية ..

الباب الخامس

ماذا يجرى فى رشيد ؟

لقاء خاص بين محافظ رشيد والقنصل الفرنسى :

كان قنصل فرنسا فى رشيد يعلم جيدا بأن من أهداف الحملة الإنجليزية على مصر، القضاء على النفوذ الفرنسي فى بها و على العلاقات الجيدة بين فرنسا والدولة العثمانية. وأن إنتصار الإنجليز فى هذه الحملة سيكون ضربة قاضية للمصالح الفرنسيه. لذلك عمل جاهداً على إفشال الحملة الإنجليزية.

***

فبعد احتلال فريزر لمدينة الاسكندرية فى 21 مارس، طلب القنصل الفرنسى فى رشيد مقابلة المحافظ علي بك السلانكلى في لقاء خاص بينهما. فى هذا اللقاء أوضح القنصل للمحافظ أنه علم من مصادره الخاصة أن القنصل الإنجليزي فى رشيد يرسل التقارير للجنرال فريزر بالاسكندرية يحرضه فيها على احتلال رشيد. وأن فرنسا دولة صديقة للسلطان العثماني. ومن واجب فرنسا تقديم ما تراه فى صالح أصدقائها.

إجتماع المحافظ وكريت مع أعيان الأهالى وشيوخ الحرف :

كان محافظ رشيد رجلا ذكيا .. وهو يعلم أن نصيحة القنصل الفرنسي تقوم على إستشعاره الخوف على مصالح بلاده فى مصر. وأيقن المحافظ أنه لن يخسر شيئا إذا بدأ الإستعداد لهذا الخطر، بل إن هذا ما يتوجب عليه عمله حتى ولو لم تأته هذه النصيحة من عدو الإنجليز اللدود .. وعدو عدوى صديقى.

وعلى الفور طلب المحافظ أن يجتمع بالسيد حسن كريت والعلماء والأعيان وشيوخ الحرف وعرض عليهم الأمر. وقد جاءت هذه النصيحه موافقة لما ساوره هو والمخلصين من أهل رشيد من إقدام فريزر على إحتلال رشيد بعدما إحتل الاسكندريه لما لرشيد من موقع هام.

لا .. للإستسلام. نعم .. للنضال :

وخلص الإجتماع بين المحافظ والأعيان فى رشيد إلى عدم الإستسلام والتصدى للإنجليز ومحاربتهم.

فكيف يوفرون السلاح للدفاع عن بلدهم ؟ لابد لهم أن يعدوا ما استطاعوا من قوة.

اقترح بعض الحاضرين أن يكون سلاحهم كل ماتصل إليه أيدى الناس .. فأي سلاحٍ متاحٍ، مُباح. فهذه حرب دفاعٍ عن العرض والأرواح.

فتقرر توفير النبابيت والشوم والعصي،والحجارة والطوب .. تجمع من الشوارع والبيوت المهدمه وتكوم فى البيوت لوقت الحاجه إليها . وكل الآلات الحديديه مثل : ساطور الجزار ومسيّف القفاص ومنجلة الفلاح.

وتعهد شيخ الحدادين بتوفير أعداد من هذه الآلات و تسليمها للسيد حسن كريت فى المخزن الخلفى فى منزله الواقع بجوار مسجد زغلول. وعلى من يحتاج من الناس " سلاحا " أن يذهب إلى السيد حسن بعد صلاة العشاء فى مسجد زغلول يطلب منه مايريد .. وذلك حرصا على السريه وعدم لفت الأنظار.

واقترح أحدهم – وهو يلف ذراعه بقطعة من القماش – أن يستخدم الزيت المغلى كسلاح ؟ فليس أفتك منه .. وأشار إلى ذراعه.

فلما سأله بعض الحاضرين أن يوضح فكرته، حكى لهم ما أصاب ذراعه من تسلخات بعد أن وقع عليه الزيت المغلي أثناء قلي الباذنجان فى مطعمه.

لقي الإقتراح ترحيبا من الجميع، وتعهد أصحاب السيارج الحاضرين فى الإجتماع بزيادة الكمية المعصورة من الزيوت ووضعها فى صفائح وتسليمها للسيد حسن الذى يقوم بتوزيعها على النحو السابق. وقال أحد أصحاب السيارج مازحاً .. " وإذا لم يحدث شيئ مما نكره من حرب الإنجليز .. فالزيت من عندى هدية بالهنا والشفا لأهل رشيد. جنّبها الله كل سوء ووقاها شر الطامعين."

وقال آخر : " على أن يكون الإعتماد الأساسي على الماء المغلى .. توفيرا للزيت ! والماء متوفر فى كل البيوت فى صهاريج بالدور الأول وما على النسوه إلا حمله فى الأوانى إلى الدور الثانى أوالثالث لغليه وصبه من النوافذ على الرؤوس يشوى الوجوه والأبدان. فلابد لنهر النيل أيضا أن يحارب ."

واتفقوا كذلك على ضرورة إرسال أربعة فرسان يستطلعون الطريق بين رشيد ومدينة ادكو وإخبارهم بما يحدث من تحركات العدو .

والتشديد على سرعة التنفيذ من باب " خذوا حذركم. ". فمن يدرى .. لعل العدو الآن فى طريقه إلى رشيد .

***

وفى آخر الأجتماع تعاهدوا على كتمان ما توصلوا إليه من قرارات ودعوا الله أن يحفظ رشيد وسائر مصر من كل سوء. وأمنوا على ذلك بقراءة الفاتحه.

***

الطريق إلى رشيد :

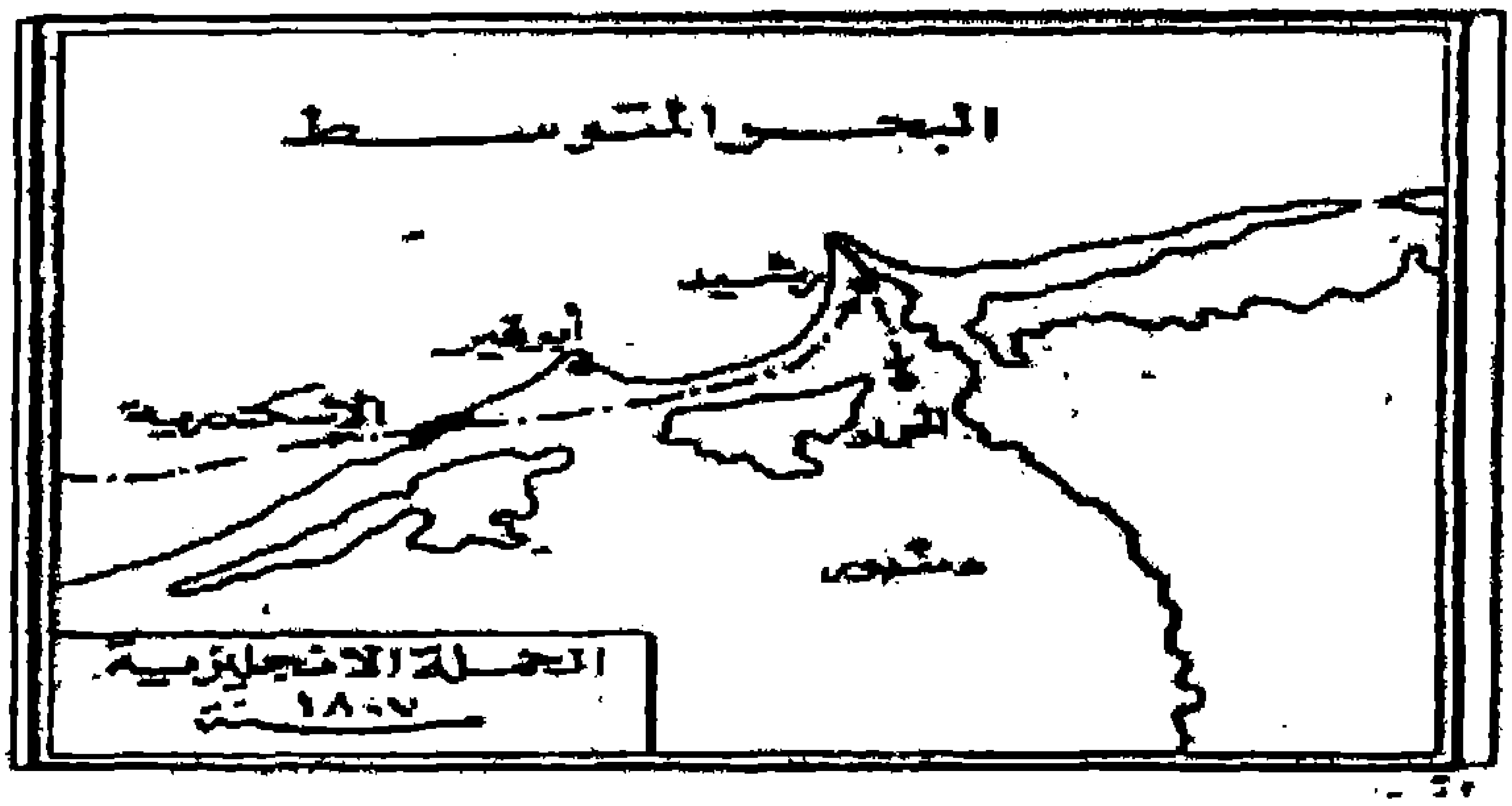

(خريطة تبين خط سير حملة ويكوب على رشيد قادمة من الاسكندرية)

كلف الجنرال فريزر قائد الحملة، جنرال ويكوب بقيادة فوج (2 كتيبه) من 2000 جندى تتجه إلى رشيد واحتلالها.

وكان على ويكوب أن يقطع مسافة الأربعين ميلاً أي حوالى 55 كيلو متر، هي طول الطريق الساحلى بين رشيد والاسكندريه.

تحركت القوات من الإسكندرية مروراً بخليج أبى قير .. وهو خليج واسع بين الاسكندريه ومصب نهر النيل عند رشيد .

ولابد أن الجنرال ويكوب والجنود الإنجليز – وهم يسيرون حول هذا الخليج – قد ارتفعت معنوياتهم وهم يتذكرون الموقعة الحربية بين الأسطول الفرنسى فى 1 أغسطس 1798 – أي منذ 8 سنوات – وبين الأسطول الإنجليزي بقيادة أمير البحر هوراشيو نلسون الذى أغرق سبع سفن فرنسية منها سفينة القيادة الفرنسيه " أورينت " فى هذا الخليج.

وما لبث أن انتشر خبر تقدم الحملة نحو ادكو .. ذلك أن أحد الصيادين الذين جاءوا إليها من قرية مجاورة للصيد فى بحيرتها أخبرهم بأنه ترك وراءه أعدادا كثيرة من الجنود الإنجليز فى قريته التى تبعد عن ادكو مسيرة ساعة. عسكروا فيها للتزود بالمياه ولأخذ قسط من الراحه قبل مواصلة المسير.

ما أن سمع الفرسان الأربعة الذين جاءوا من رشيد، والمقيمون فى ادكو منذ عدة أيام، هذا الخبر حتى أيقنوا أن الصيد الذى طال إنتظارهم إياه قد عثروا عليه.

فرجعوا عائدين إلى رشيد يسابقون الريح .. تاركين العنان لخيولهم تطوى الأرض طيا.حتى إذا ما اجتمعوا بالسيد حسن كريت أخبروه بما سمعوا. وذهب السيد حسن لمقابلة المحافظ على الفور وأخبره بما جاء به الفرسان من أخبار عن تقدم العدو نحو رشيد. وبعد تشاور، استقر الرأي على إرسال مجموعة إستخبارات تنتشر على مشارف رشيد .. لكي تكون المعلومات متوافره لدى القياده عند وصول العدو.

وعهد بهذه المهمة لمجموعة من الشباب .. تخرج إلى الغيطان المحيطة برشيد وترصد الطريق المؤدى إلى البوابه الغربيه... ويفضل لهذه المهمة من لهم أقارب فى هذه الغيطان، حتى لا يلفتون النظر إليهم.

...

إقتربت القوة الإنجليزية من مدينة ادكو، وأصبح البحر المتوسط عن يسارهم، وبحيرة أدكو عن يمينهم.

لاحظ ويكوب أن أهل هذه القرى التى يمرون عليها يتجنبون الإقتراب منهم. بل إن العيون التى أرسلها ويكوب أمام الحملة للإستكشاف لم تكتشف أي تجمعات عسكرية أو مراكز مقاومة.

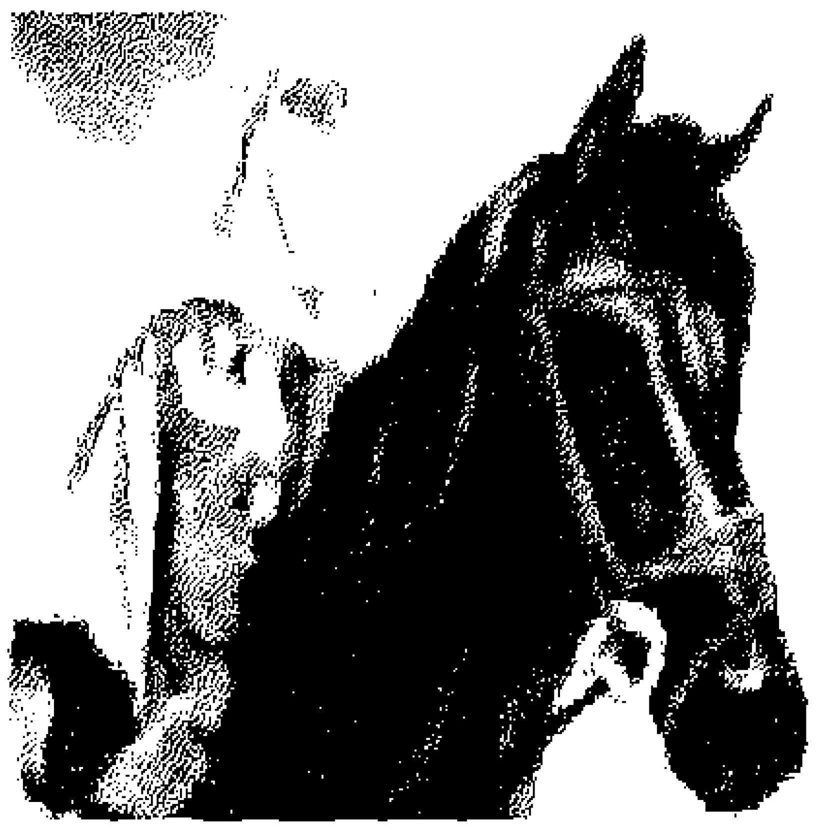

(الفرسان يرصدون الأخبار)

وفى هذه المنطقه بجوار البحيرة يكثر نبات البوص، وكذلك نبات الحلفا – الذى يصنع منه الحصير–. وهي سيقان رفيعة طويلة – مثل مسلة الخياط – فى آخر كل ساق ثمره مثل الكرة الصغيرة بها ألياف مثل القطن المندوف، تتطاير جزئياتها فى الفضاء كلما هبت عليها الرياح

(نبات الحلفا الذى يكثر فى المناطق المائية)

وعلى سطح برك المياه المتناثره ، تطفو طبقة بيضاء من الملح، وفى بعض هذه الملاحات، كان أهل ادكو يجمعون الملح فى أكوام .. فكان هذا المنظر يذكرهم بقمم الجليد التى تتكون على الجبال فى بلادهم فى فصل الشتاء، أو فوق مياه المحيط أمام الساحل !

(جبال من الملح .. كأنها جبال الجليد)

...

ما أن غادرت الحمله ادكو حتى انتصب أمام أعينهم بحر من التلال الرمليه !
كان عليهم أن يعبروا هذا البحر الواسع من التلال الصفراء الناعمة .. والتى يصعب السير فيها .. وهم يحملون أثقالا فوق أثقالهم .

لم يكن أمامهم طريق آخر للوصول إلى رشيد غير عبور هذا البحر من الرمال، أو عبور البحر المتوسط فى مياهه القريبه من الشاطئ. غير أنهم تعلموا الدرس من الحملة الفرنسية التى سبقتهم فى عبور هذا البحر والمهالك التى واجهوها فى بوعاز رشيد. ففضلوا بحر الرمال .. عله يكون أرحم بهم من بحر المياه !

***

لم تكن هناك معالم مميزة على إمتداد هذه المنطقة .. إلا أحواض من الرمال، وشجر النخيل والأشواك البريه وأعواد البوص والتين الشوكى الأحمر تحيطه الأشواك.

ومما زاد الأمرصعوبة ، أن التلال فى معظمها بتلك المنطقه تتجه من الغرب إلى الشرق. أي أنها تعترض طريق المسير إلى رشيد.

و بين كل تل وآخر يوجد حوض رملي منبسط أو وديان سهلية تكثر فيها أشجار النخيل وأشجار النبق. فكان الجنود – بأحمالهم الثقيلة – يصعدون من الوادى إلى قمة التل، لينزلوا من الناحية الأخرى إلى الحوض الذى يليه، ثم يواصلون صعود التل التالى حتى إذا ما وصلوا إلى قمته، بدأوا فى الهبوط مرة أخرى .. وهكذا.

حتى إذا وصلوا إلى " حوض الأربعين " الذى ينتهى عند سور رشيد الغربي .. أطلت عليهم مدينة رشيد بوجهها الجميل، فهان عليهم كل ما وجدوه فى الرحلة من عناء.

***

رشيد فى الربيع :

فى مثل هذا الوقت من كل عام .. شهر مارس .. تستعد رشيد لاستقبال فصل الربيع : فبعد فصل الشتاء، تظهر نباتات برية تكون قد ارتوت من مياه الأمطار، فتكسوا الجبال والوديان حول المدينة، فتبدو وكأنها بساط سندسي أخضر بسطته

الطبيعة تحت أقدام الربيع ليتجول فى بساتينها آكامها ليضفى عليها بهجة ونضارة.

فيكسو أرضها بالنجيل الأخضر، ونبات الخبيزة البرية، ويظهر طلح بلحها تحمله أشجار النخيل فوق رؤوسها .. وتنتشر رائحة زهرة

الليمون .. وتكثرالأزهار البرية .. صفراء وبيضاء على سفوح التلال وآكام المرتفعات. ومن معالم هذا الفصل عصفور يسمى أبو فصاده. هذا العصفوريهتز فى وقفته إلى الأمام وإلى الخلف .. غير ثابت كفصل الربيع الذى يتأرجح بين الشتاء بلسعة البرد التى تلازمه فى بدايته

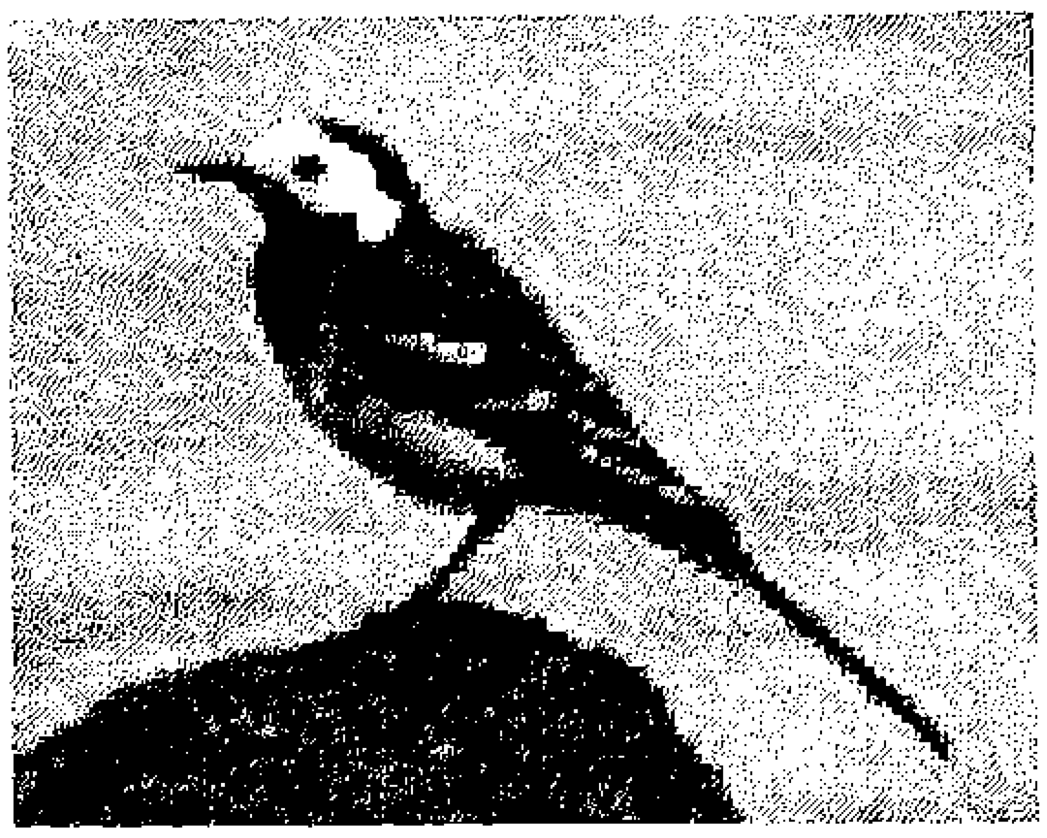

(طائر أبو فصاده)

وبين نسمات الصيف الدافئة التى تهب علينا كلما اقتربنا من نهايته. ولون ريشه يغلب عليه اللون الرمادي وبعض الأسود تحت منقاره وصدره والأبيض حول عينيه .. واللون الرمادي لا هوية له .. فهو ليس أسود كليالى الشتاء .. ولا هو أبيض كسماء الصيف .. فهو يجمع هذه الفصول الثلاثه فى لون ريشه .. وإن كان يغلب عليها اللون الرمادي كلون الفصل الربيعي.

ما أن وصلت جنود الحملة إلى رشيد مع غروب شمس 30 مارس .. حتى تخير لهم قائدهم .. ويكوب .. مكانا استراتيجيا يعسكرون فيه حتى صباح اليوم التالى. وأشار إلى أحد التلال.. تل أبى مندور.

بدت رشيد لهؤلاء الغرباء .. وكأنها جنة الله فى أرضه .. بعدما اكتأبت نفوسهم من أكوام التلال الرمليه .. وأنهكت قواهم و. عَنّفتْهم ذراتُ الرمال التى تحملها الرياح تصفع جوههم.

...

أسرعت عيون الإستخبارات التى كانت منتشره فى هذه المنطقة خلف جذوع النخل وبين الأشجار إلى الشيخ حسن كريت تخبره بوصول الإنجليز إلى تل أبى مندور .. وانتشر الخبر فى رشيد كلها.

...

على تلال أبى مندور :

لاحظ ويكوب أن التلال جميعها تتجه من الغرب إلى الشرق. ماعدا هذا التل .. فهو يتجه من الشمال إلى الجنوب. صعد التل مع نفر من جنوده ليستطلع ما وراءه.

ويبهره جمال ما رأى! فهذا التل يخفى وراءه لوحة عبقريه رسمتها يد عبقرية .

فى أسفل التل، يتدفق نهر النيل العظيم متجها إلى الشمال.

وعلى الضفة الأخرى من النهر جزيرة خضراء يلتف النيل من ورائها ليتجه بقوة ناحية التل الرملى .. أي ناحية الغرب.

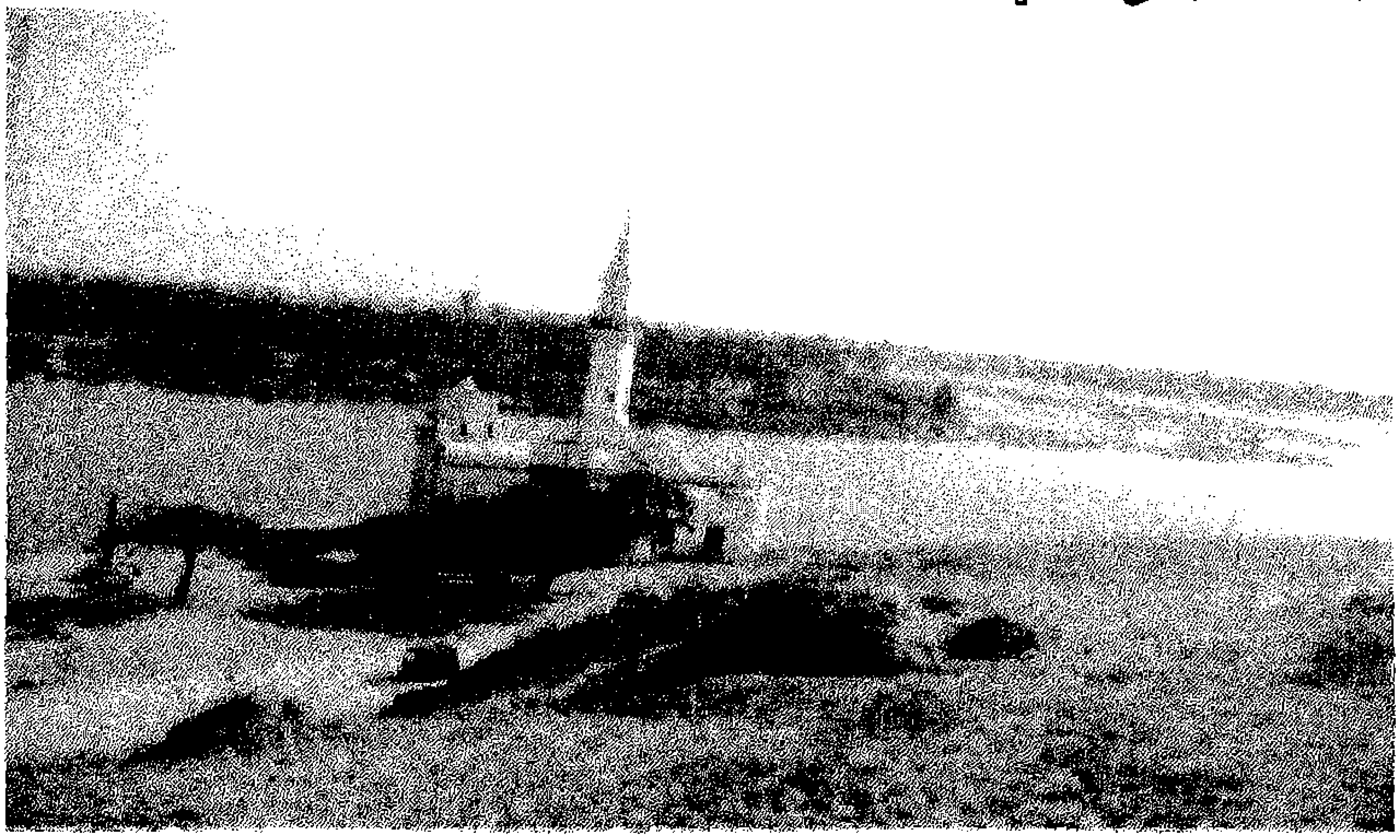

(نهر النيل عند أبى مندور فى رشيد)

ثم ينحنى فى التفاف مباغت ليتجه إلى الشرق، ثم يطوّف – تبركاً – طوافا على شكل نصف دائرة حول مقام شيخ جليل يسكن مسجدا صغيرا – مسجد أبى مندور– أقيم على الضفة الغربيه. وبجانب المسجد شجرة جميز تفتحت ثمارها مع تفتح الأزهار لتستقبل الربيع. ثم يواصل النهر هرولته .. بعد هذا الطواف .. مستمسكا بالطريق المستقيم نحو البحر!

***

سرح الجنرال ويكوب بخياله بعيدا. إذن فهذا هو نهر النيل .. قادم من أدغال افريقيا جنوبيا، قطع كل هذه المسافة ليصل إلى رشيد ثم يتجه نحو البحر.
إذا ركبته واتجهت إلى الشمال .. ركبت البحر المتوسط ووصلت إلى وطنى .. بريطانيا. وإذا ركبته واتجهت إلى الجنوب .. وصلت إلى القاهرة، ركبت بحر القلزم – البحر الأحمر – فمضيق باب المندب، فبحر العرب فالمحيط الهندى .. حيث المستعمرات الإنجليزية .. أرض التوابل .. درة التاج البريطاني .. وهذا ماجئنا لتأمينه .. طريق التجارة إلى الهند.

...

إلتفت ويكوب إلى أحد معاونيه وطلب منه أن يمسح المكان، ويرى ما بداخل هذا المبنى ذو المئذنة العالية .. فذهب الرسول ومعه بعض الجند حاملين بنادقهم ودخلوا المسجد .. ثم عادوا يخبرونه بأنهم لم يجدوا بداخله إلا ثلاثة نفر من الطاعنين فى السن قابعين فى ركن منه ترتفع أصواتهم بكلام غير مفهوم ، سمع لهم طنينٌ كطنين النحل.

الورده الصغيرة :

ثم التفت ويكوب غرباً – وهو فوق تل أبى مندور – ، فرأى مدينة رشيد وسط هذا البساط السندسي الأخضر، مثل الوردة اليانعة فى بستان نضير .. فبهره جمالها ..

فأطلق عليها هذا اسم : Rosetta .. الوردة الصغيرة !

ظل ينظر إليها ويمعن النظر .. كأنما سحره جمالُها .. هذا النخيل الكثيف الذى يحيط بها، يطاول فى ارتفاعه، ارتفاع المآذن الكثيرة التى ترتفع فوق مساجدها الكثيرة .. هذه المساجد التى تشبه القلاع الحربية .. ومآذنها المنتصبة فوقها .. كأنها المدافع.. تحمى المدينه من شر المعتدين.
وتعجب كيف تكون هذه المساجد .. قلاع المصريين ؟ وتلك المآذن .. مدافعهم ؟

...

شعر الجنرال .. رجل الحرب .. أن لهذه الوردة أشواك كثيرة .. وأن الورد كما هو وديع وجميل إلا أن له أشواك تحميه . وهذه المدينة تحميها تلك القلاع وتلك المدافع.

ومع هذا فهو يشعر بألفةٍ نحوها .وليس غريبا أن تنشأ الألفة بين أشخاص وأمكنة.

لايدرى لماذا كلما نظر فى إتجاه هذه المدينة شعر وكأنه يريد أن يجرى نحوها فاتحاً ذراعيه ليحتضنها. وهبت على وجهه نسمة عليلة جاءت تحمل عبق رشيد، ففتح لها صدره ودخلت إلى قلبه وشعر بانتعاش يسرى فى كل جسده.

جاء ويكوب يحتل رشيد .. فاحتلته ؟

لكن عقله مازال يصارع .. وطبيعته العسكرية مازالت تستنفر فيه ملكاته الحربية .. فهو مقاتل من طرازٍ فريد .. كما أنه فارسٌ من طرازٍ نبيل.

وبينما كانت تتجاذبه أطراف نفسه .. إذ ارتفع صوت مؤذن المسجد يعلن بالتأذين لصلاة المغرب ... " الله أكبر .. الله أكبر " .

فقال ويكوب فى نفسه .. ربما يكون سر قوة هذا الشعب فى هذه الكلمات التى تنطلق من جوف هذه القلاع .. لتحملها هذه المدافع المصوبة فوقها .. فيرتجُ لها الكون رجاً !

...

كان الليل قد بدأ يسدل رداءه الأسود على الكون، فاستشعر ويكوب الوحشه، واعترته رعشة فى جسده بعد أن هبت عليه لفحة من نسيم الشمال البارد .. تهب غالبا بعد مغيب الشمس. توجه ويكوب بنظره ناحية المدينه .. رشيد .. فوجد أن رداءً أسودًا قد احتواها .. ولم يظهر منها إلا وجهها يضيئه النور .. إنها أضواء المشاعل تضيئ الشوارع.

يبدو أن رشيد لن تنام هذه الليلة.. لعلها تنتظر ضيفا يأتيها مع الخيوط الأولى للفجر !

...

كان رجال ويكوب قد أقاموا له خيمة القيادة .. وأضاءوا المشاعل حول المعسكر .. وعينوا الحراسة .. فأمرهم بأخذ قسط من الراحة حيث تنتظرهم مهام كثيرة فى الصباح الباكر.

قضى ويكوب ليلته فى الخيمة .. وهو يمنّى النفس بإقتطاف هذه الوردة اليانعه ليضمها إلى باقة انتصاراته العسكرية السابقة .. مع انه يعلم أن لبعض الورد أشواكً قد تفوق فى حدتها حد السيف !

...

وبينما هو كالنائم خيّل إليه أنه رأى شبحا فى رداء عربي يعدو بين الخيام وكاد أن يكذّب عينيه لولا أن لفافة من ورق ألقاها هذا الشبح نحوه فسقطت بجانبه، فلما اعتدل فى جلسته وفتح اللفافة رأى مكتوبا فيها نصا باللغة الإنجليزيه ثم هذه الأبيات باللغة العربية كأنما هي ترجمة لها :

إرحل بجيشك عن رشيد

فمصر لأعدائها تبيد

وسترى منها نضالاً يشيب له الوليد

الإمضاء : ناصحٌ لك من رشيد

إستيقظت حواس ويكوب كلها مرة واحده ونادى على حارسه بصوت أكثر حدّه وطلب منه أن يأتى له على الفور بهذا الشبح الملثّم الذى رآه يجرى بين الخيام. واستيقظ كل المعسكر بحثا عن هذا الشبح .. لكنهم لم يعثروا له على أثر. وتكهن البعض أن هذا الذى تخيله ويكوب هو من صنع التعب والإرهاق الذهنى الذى يصيب قادة الجيوش قبل بدء المعارك وتقبل ويكوب هذا التبرير على مضض. فكيف يكون ذلك كذلك وفى جيبه دليل ملموس على وجود غريب بالمعسكر.. تلك اللفافة من الورق التى لم يشأ أن يريها لهم خشية الإحباط الذى سيصيبهم إذا علموا أن عدوهم قد إخترقهم ودخل معسكرهم قبل أن تبدأ المعركة.

ولم ينم ويكوب .. وجاء أول شعاع شمس فى صباح اليوم التالى ليتولى مهمة إيقاظ الجنود .. فدبّتْ الحركة والنشاط فى المعسكر.

إستخبارات :

عند الفجر، جاء من كان يرصد تحركات القوة الإنجليزية وأخبروا السيد حسن كريت أن ما يقرب من ثلثي القوة تتجه نحو المدينة، والثلث الباقى ظل معسكراً على تلال أبى مندور.

و كان الجنرال ويكوب قد وصله متخفياً فى ظلام الليل من يحمل تقارير من القنصل الإنجليزي فى رشيد. وقد أكدت التقارير التى وصلته هدوء الأحوال بالمدينة .. فلا استعدادات حربية أتخذت، ولا جنود داخل القلعة حُشدت .. بل إن بوابة رشيد الغربية مفتوحة من على مصراعيها وكأنها فى انتظار القادمين. وجاء أيضا أن الجاليات الأجنبية فى رشيد تستعد للترحيب بالقوات الانجليزية .

أما الجالية الفرنسيه فبطبيعة الحال كانت أسوأ حالا .. فما أن سمع الفرنسيون فى رشيد بانتصار الإنجليز فى الإسكندرية حتى بدأوا فى الخروج من المدينة إلى بلاد الشام أو السفر إلى القاهرة بعد أن باعوا متاعهم وحوانيتهم .. وعندما سمعوا أن الانجليز فى طريقهم إلى رشيد فروا منها هاربين .

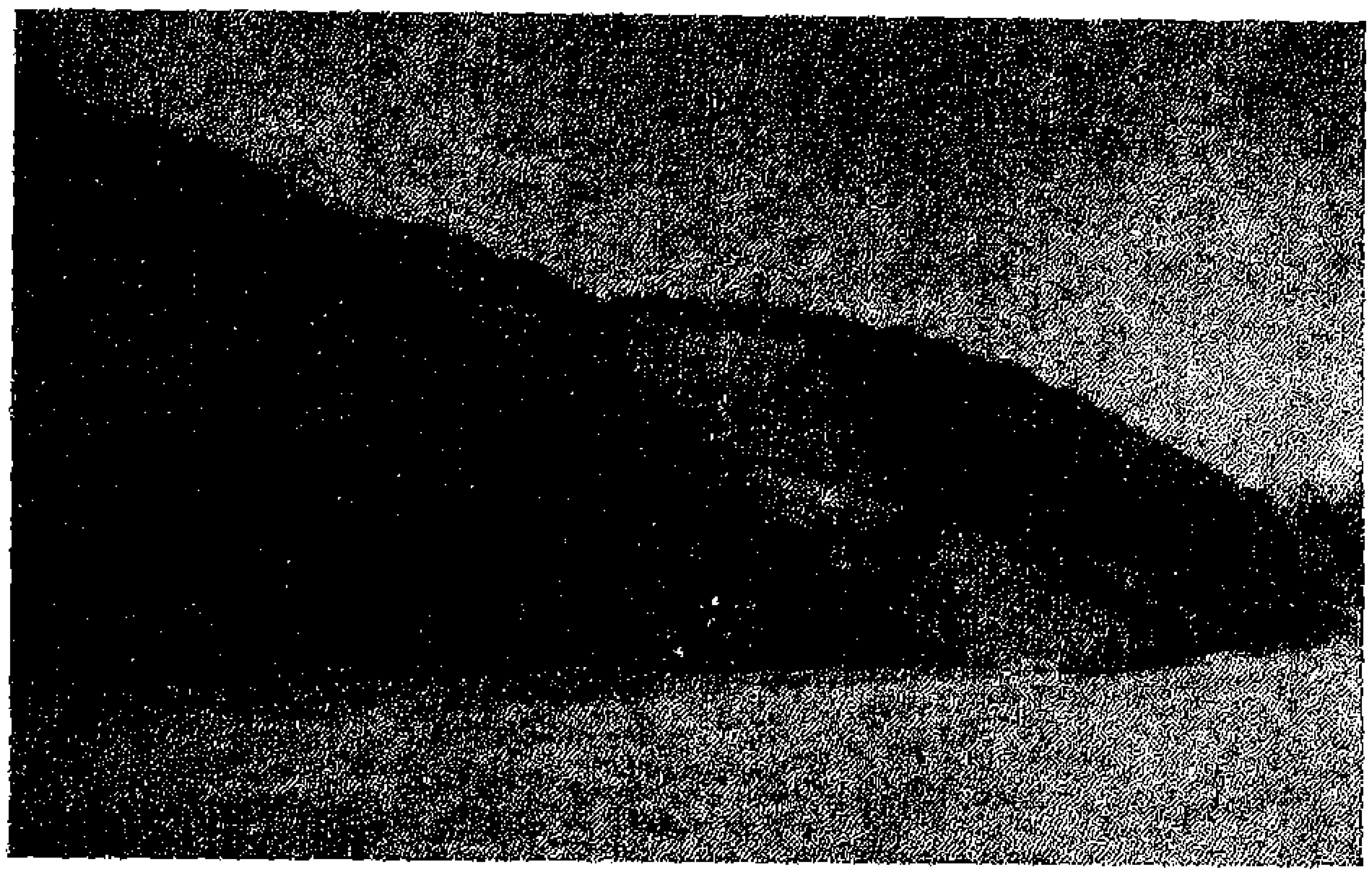

(تل أبو مندور)

الباب السادس

الحرب خُدْعه :

أراد محافظ رشيد على بك السلانكلى وقائد المقاومة الشعبية بها الشيخ حسن كريت أن يوصلا إلى القنصل الإنجليزى وباقى الأجانب فى رشيد .. أن رشيد لن تقاوم !

فهما يعلمان أن المدينه تمتلئ بالعيون والجواسيس الذين بثهم هذا القنصل الإنجليزي فى كل مكان يرصدون تحركات الحامية التركية،وما يحدث من إستعدادات، ويفسرون كل تصرف .. ويؤولون كل كلمه.

لهذا كانت كل التحركات بحساب، وكل الخطوات بتدبير. " واستعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان.

والحرب خدعه.

...

خطة الدفاع عن المدينه :

وكان السلانكلى ورجال المقاومة،قد وضعوا خطة المقاومة فى سرية تامة وأحاطوها بتكتم شديد !

* تقوم الخطة على ضرورة التلاحم بين الأهالى وجنود الحامية التركية .. وكان عددهم كما قلنا لايتجاوز سبعمائة جندى.

*واستقر الرأي على إبعاد المراكب من أمام شاطئ النيل برشيد إلى البر الشرقي المقابل عند الجزيرة الخضراء وبرج مغيزل بمركز مطوبس، حتى لايجد رجال الحامية وسيلة للإرتداد أو الاستسلام أو الانسحاب كما فعلت حامية الاسكندرية من قبل.. فيصبح العدو أمامهم والبحر من ورائهم.

*كذلك تقرر أن تخلى الشوارع من الأهالي ورجال الحامية . ويتحصنون داخل البيوت مستعدين للمقاومة، وألا يبدأوا قتالاً إلا عندما تصدر الإشارة بذلك.

* توزيع المهام :

تقرر أن يكون عثمان أغا حاكم رشيد - وكان جنديا بالجيش التركي قبل ذلك - مشرفاً على توزيع رجال الحملة على الأماكن التى يحددها لهم والمهام التى يقومون بأدائها .

والشيخ حسن كريت قائد المقاومة الشعبية، عليه الإشراف على تدريب الأهالى وتوزيعهم على الأزقه والحارات. وكذلك تمويلهم بالسلاح والزيت وما يلزم من مؤنه

* توزيع القوات :

الحامية العثمانية : تحت إشراف عثمان أغا ..

(أ) تبقى مجموعة من الجنود فى بيته - بيت رمضان بجوار مسجد العرابى - لقرب هذا البيت من مدخل رشيد عند البوابة الغربية

وتكون مهمتها إصطياد عساكر الانجليز بإطلاق النار عليهم عند خروجهم من هذه البوابة أثناء فرارهم .. أو إعاقة من يأتى من زملائهم المعسكرين على تلال أبى مندور لنجدتهم.

(ب) توزع مجموعة أخرى من رجال الحامية على بيوت كبار التجار التى تحتل موقعا استراتيجيا على نواصي الطرق والحارات .. وتحدد هذه البيوت بالضبط .. ويبقى صاحب هذه الدار فى داره ليشرف عليهم.

(ج) ومجموعه ثالثة يحدد لها أماكن فى الأزقة والطرقات فى أطراف المدينه.

*ميدان المعركه :

شوارع وأزقة وحارات رشيد .. ومن خلف نوافذ البيوت .. ومن فوق أسطح المنازل.

* السلاح :

إستخدام كل الوسائل الممكنه لمحاربة العدو كما تم الإتفاق عليه آنفا.

* وإشارة البدء :

.. " الله أكبر .. حيى على الجهاد " تنطلق من فوق مئذنة مسجد زغلول فى غير وقت صلاة.

الدخول إلى رشيد :

وفى صبيحة يوم الثلاثاء 21 من المحرم 1222 الموافق 31 مارس 1807، دخلت القوات الانجليزية مدينة رشيد بيسرٍ وسهوله عبر البوابة الغربية.

كل شيئ يبدو مرحّباً.و الجالية الإنجليزيةِ بعض الأجانب على رأسهم القنصل الإنجليزي ينتظرون حاملين الأزهار والرياحين.

***

وخلف جدران البيوت .. كانت تجرى مراسم إحتفال بهذا الضيف الوافد .. لكن بطريقه مغايرة .. فرشيد بلدٌ مضياف تعرف قدر الضيوف .. وتقدم لهم ما يستحقون من كرم الضيافه !!

كان الجنرال ويكوب يتقدم موكب الفاتحين .. مرتديا سترة عسكريه حمراء اللون، والسروال الرمادى الضيق، والحذاء العسكرى الطويل ويضع الخوذه على رأسه. وقد إعتلى صدره النياشين الملونة. عن يساره القنصل الإنجليزي، وعن يمينه النقيب بروس نائبه ، يحيط بهم باقى القواد ، ثم الجنود فى زيهم العسكري.. حاملين بنادقهم .. يتقدمهم حامل العلم البريطاني ! و سار موكب الفاتحين فى شارع دهليز الملك.

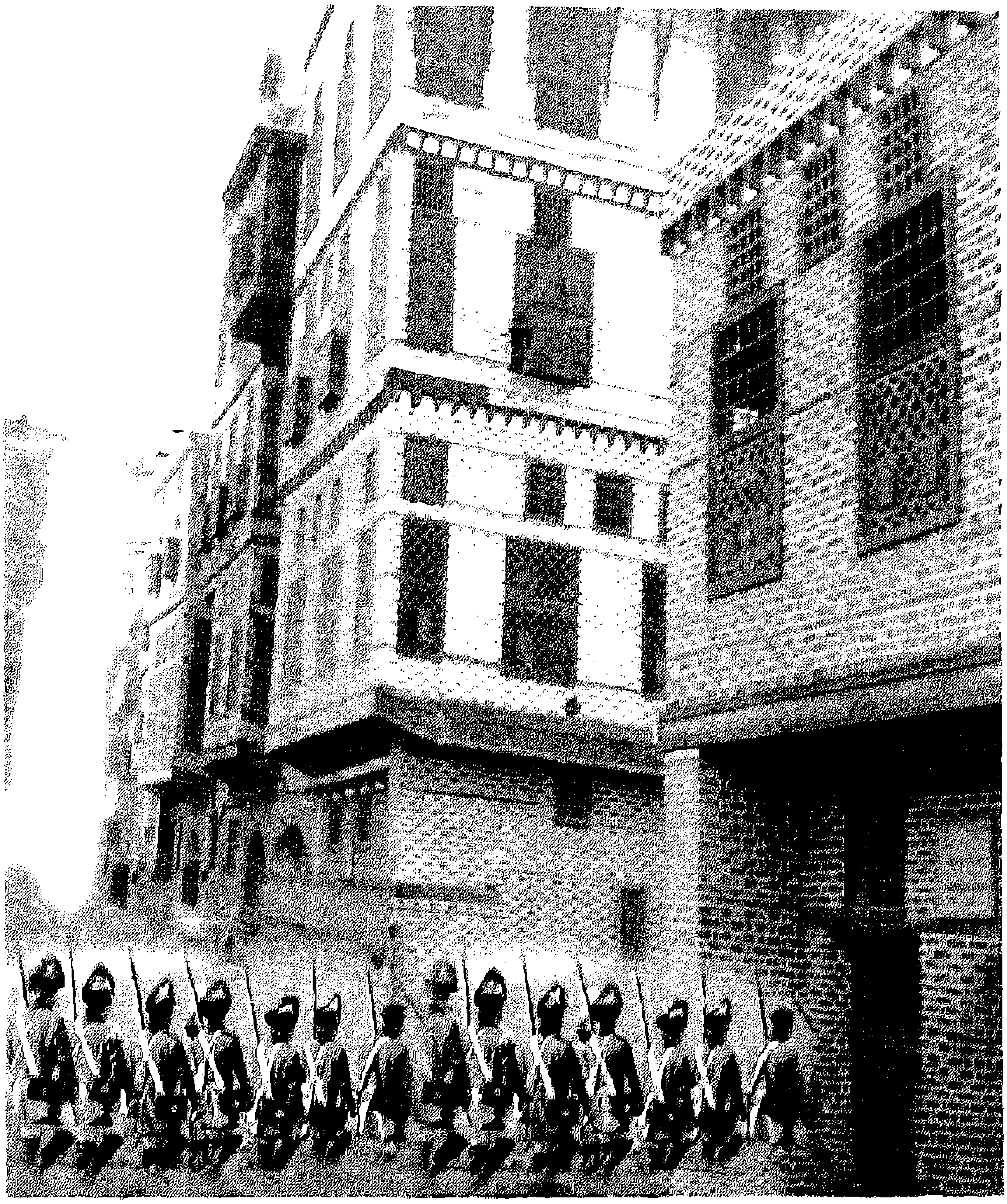

(شارع دهليز المُلك حيث دخلت جنود الحملة لاحتلال رشيد بقيادة ويكوب)

على يمين الداخل إلى شارع دهليز المُلك يوجد مسجد العرابى وقد بني قبل ثلاث سنوات فقط من وصول الحملة. ثم صف طويل من القصور الفخمة الضخمة. وهي بيوت حاكم المدينة عثمان أغا وأمراء المماليك وكبار التجار مثل بيت كوهيه وبسيونى ورمضان ومحارم والجمل، وفى مقابل المنزل الأخير يوجد منزل أبوهم على الجهة اليسرى.

وبجوار منزل أبوهم -وأمام هذه البيوت فى الجانب الأيسر- الجهة البحرية .. منطقة فضاء بها أشجار وبساتين.
فى هذه المنطقه أمر ويكوب، النقيب بروس أن يستبقي قوة من 200 جندى بأسلحتها ويعين لهم قائد لتأمين بوابة المدينة.

***

تلك البيوت الضخمة على جانبي الطريق مبنية من طوب صغير الحجم أسود اللون يفصل بين كل صفين من الطوب ملاط أبيض اللون. وباب المنزل مصنوع من الخشب السميك تسمرت فيه دوائر صغيرة من الحديد لتزيده منعة وصلابة.
ووضعت معصبات من الحديد على نوافذ البيوت فى الدور الأول لتزيد البيوت تحصيناً.

***

وقال ويكوب لنفسه بحسه العسكري " ما أشبه هذه البيوت بالقلاع الحربية .. إن رشيد أجمل مما توقعت، وأكثر تحصينا مما أريد."

***

كان كل بيت من بيوت المدينة وكأنه قلعة حربية خاصه بذاتها.أبوابٌ قوية محكمة الإغلاق صهاريج للمياه تكفى للإستخدام طوال العام، طاقات ضيقة للمنازل تستعمل كنوافذ يصعب إقتحامها من الخارج، مشربيات ذات فتحات من أسفلها تطل مباشرة على من يقف بباب البيت فيمكن إصطياده بسهولة، برمي حجر أو بسكب الماء المغلى أو بتصويب سلاح نارى.
بالإضافة إلى الأزقة الضيقة المتعرجة التى يعرفها أبناء المدينة حق المعرفة. والأرض تحارب مع أصحابها.

(بيوت كأنها القلاع الحربية)

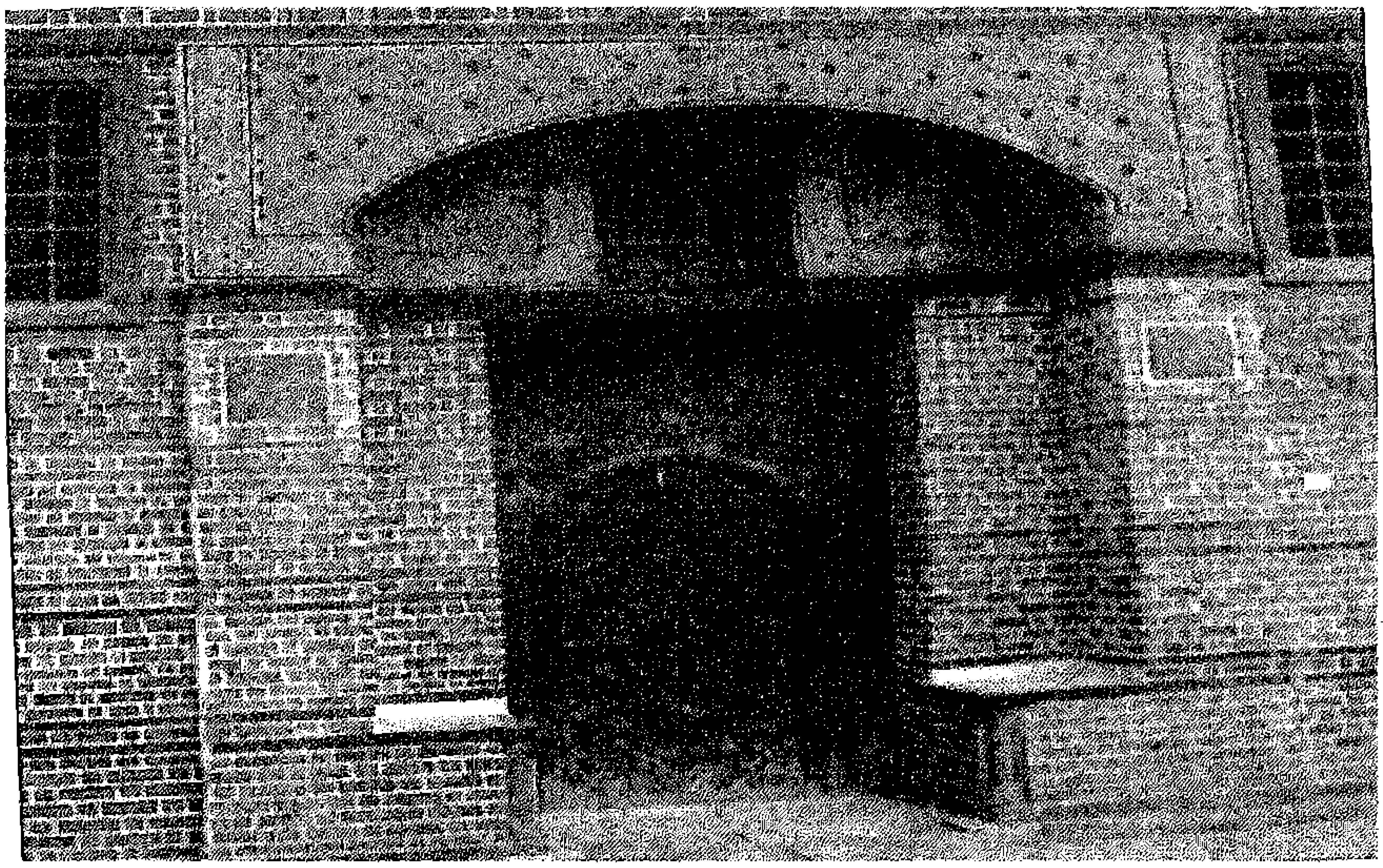

(ابواب من الخشب السميك تسمرت فيه دوائر صغيرة من الحديد لتزيده منعة وصلابة.)

***

كان القنصل الانجليزي لا يكاد يتوقف عن الكلام أثناء الموكب، يعرض على الجنرال ويكوب البرنامج الذى أعده له :

الذهاب مباشرة بعد هذا الموكب إلى مقر القنصلية حيث ينال القادة قسطا من الراحة هناك. وفى المساء يقام حفل عشاء راقص على شرف الجنرال ويكوب تحضره عائلات الجالية الإنجليزية .

وفى الغد يذهبون إلى الكنيسة لتأدية صلاة الشكر للرب على هذا النصر.

وفى يوم الجمعه يقام بالقنصلية حفل لاستقبال محافظ رشيد والأعيان وكبار التجار لتقديم التهانى والولاء لقائد الحملة وكبار الضباط.

***

وصل الموكب إلى ميدان فسيح تلتقى عنده عدة طرق فأمر ويكوب بإستبقاء 500 جندى للسيطرة على هذا الميدان الواسع والشوارع المطلة عليه. وعندما كان يشير بإصبعه لتحديد هذه الشوارع، وقع بصره على مبنى مسجد .. إنه مسجد زغلول .. يرصد هؤلاء الغرباء ذوى الوجوه الحمر والزي العسكرى الأحمر.

***

إستمر القنصل يتابع كلامه، وجنرال ويكوب يتنقل بعيونه فى شغف شديد بين منازل وشوارع رشيد .. واستبد به شعور غريب بأن هذه المدينه ومعالمها ليست غريبة عليه .. لطالما راوده فى منامه طيف هذه البلدة .. وكأنه قد رآها من قبل فى أحلامه ! فهناك علاقة روحية بين الإنسان والأماكن.

***

إستمر الموكب فى المسير .. اجتازوا الميدان، حتى وصلوا إلى شاطئ النيل.

هاهو نهر النيل يطل عليهم من جديد .. لكنه فى هذه المرة له شكل جديد .. شكلٌ يدعو للرهبه .. عند أبى مندور كان ويكوب ينظر إليه من فوق التل المرتفع وكان هادئا يجرى فى دعه. أما هنا داخل المدينة .. فهو أكثر إتساعا .. وأكثر تموّجا وحركة .. بل كأنما هو أكثر غضباً .. لايحد حركته شاطئ .

(السقاؤون يملأون القرب الجلديه بالماء من النهر)

يتوغل فى المدينة ماشاء له التوغل، فيصل إلى البيوت يكاد يغرقها. ثم فى أجزاء أخرى ينحسر عنها ماشاء له الإنحسار فتجد أن بينه وبينها مساحات هائلة من الطين وبرك المياه المتناثرة هنا وهناك قد تخلفت عن هذا الإنحسار. وكان السقاؤون يملأون قربهم من ماء النهر ثم يذهبون به إلى البيوت لبيعه كما اعتادوا أن يفعلوا كل صباح فى الأيام العاديه غير مكترثين بجنود الحملة. ولعل هذا العمل يضفى على خطة المقاومة سرية أكثر.

شعر ويكوب بجلال هذا النهر وقوته .. فهو يهاجم فى مكان ويتراجع فى آخر .. كأنما هو مقاتل متمرّس يناور فى ساحة قتال.

...

بدأ الطريق ينحنى نحو الشمال موازيا للنهر .. فأمر ويكوب باستبقاء 300 جندي لتأمين هذا المفترق.

وماهي إلا بضع خطوات حتى فوجئ ويكوب بمبنى غريب يظهر أمامه، فتوقف عن السير وظل ينظر إليه مندهشا. وجد مسجداً معلقاً فى الهواء يُصعد إليه بدرجات من الحجر. فلما سأل، قيل له أنه مسجد دمقسيس.

...

واصل الموكب سيره .. والدهشة تبدو على الجنرال ويكوب.. كأنه يسير فى مدينة أسطورية.

وانتبه على صوت القنصل وهو يقول له هذا مبنى الشرطة وأشار إلى مبنى آخر وقال وهذا مقر محافظ المدينة.

نظر ويكوب فوجد أمام مبنى المحافظة حديقة واسعة بها أصناف متنوعة من الزهور والأشجار.

فى ذلك الميدان .. تم أيضا إستبقاء 150 جندى يحيطون بهذا الموقع.

وعلى مقربة من هذا المكان يوجد مسجد وكنيسة : المسجد هو " المحلي "، والكنيسة هي " العذراء " للروم الأرثوذكس.

...

لفت نظر ويكوب أن الشوارع تكاد تخلو من الأهالى .. إلا من هؤلاء الأوربيين الذين جاءوا للترحيب بهم، فقال فى نفسه لعل من عادات
أهل هذه البلاد ألا يظهروا مشاعرهم للغرباء بسهوله.

...

اقترب الموكب من حيى القناصل .. فأمر باستبقاء 250 جندي خارج السور.

وتصادف أن بهذا المكان أيضا مسجد وكنيسة.

مسجد " المشيد بالنور" .. وكنيسة " مار مرقص ".

وليس صدفة أن الأماكن التى اختارها هذا الجنرال العسكري لأهميتها الإستراتيجية .. كانت بجوار مساجد وكنائس.

إذن فالمساجد والكنائس تحتل أيضا أماكن استراتيجية فى هذه البلدة !

هل كان محقا عندما اعتقد أن هذه المساجد قلاع .. وهذه المآذن مدافع ؟

وإلا فكيف نفسر أن الأماكن الإستراتيجيه التى اختارها بحسابات القائد العسكري .. يمتلك ناصيتها مساجد وكنائس ؟

بل إنه يعسكر بجنوده خارج رشيد بجوار مسجد (أبى مندور).

فما سر هذه المساجد ؟

فى هذه البلاد تداخلت صرامة العسكرية مع روحانيات الإيمان .. فأصبحت الحرب جهادا يحرص فيه المسلمون على الموت .. حرص عدوهم على الحياة.

قومٌ يقاتلون على الأرض .. وقلوبهم ترتجى نصر السماء.

***

لقد أصبحت هذه البلاد .. مصر .. لغزاً حير ويكوب .. إنه منذ أن دخل رشيد وهو يرى أشياء غريبة على ثقافته وطبعه الذى نشأ عليه فى بلاده. الكنائس هنا تجاور المساجد .. ولم يحدث شيئ.

أقصى درجات الحضاره أن يحدث هذا فى بلد متحضر .. أن الكنائس تجاور المساجد .. ولم يحدث شيئ.

فهل بلغت مصر هذه الدرجه من الحضارة ؟

نعم .. لقد هضمت مصر المذاهب والأديان.. وأفرزت نسيجاً مصرياً متعدد الألوان .. لكنه يظل مصريا .. وإن إختلفت صيغته وصبغته.

***

ما أروع هذه البلاد .. وجالت بخاطره فكرة غريبة .. سيطلب من جنرال فريزر قائد الحملة أن يعينه حاكما عسكريا على رشيد ليعيش بها ما بقي له من حياه.. لا يفارقها ولا تفارقه.

***

وتذكر أن جنرال مينو أحد قواد حملة نابليون على مصر .. قد وقع فى غرام هذه الفاتنة .. رشيد .. فاستقر بها وتزوج إحدى فتياتها. فقال هامسا للقنصل : " أرجو أن ترتب لى زيارة للمنزل الذى أقام فيه جنرال مينو." فلما اعتذر القنصل عن عدم سماعه لما قاله جنرال ويكوب، استدرك الأخير قائلا : " كنت أقول لو تستطيع أن ترتب لى زيارة عاجلة للقلعه التى عثروا فيها على حجر رشيد، فأنا أريد أن أرى المكان الذى كان مخبأ فيه هذا الحجر."

ثم استطرد ويكوب كأنما تذكر شيئا هاما : " ولا تنسى كذلك أن ترسل الطعام والفاكهة إلى 600 جندى معسكرين فوق تل أبى مندور، وارسل إليهم بعض الورود ليشاركوننا فرحة النصر . "

***

عندما صرح ويكوب بأنه يريد أن يزور المنزل الذى أقام فيه مينو زوجا لزبيده، كان يقصد ذلك بالفعل، لكنه أدرك أن ما فى قلبه قد فاض على لسانه فخرج من بين شفتيه كأنه منوّم أو كأنه يخاطب المجهول.

والحقيقة أن كلا الرجلين .. ويكوب ومينو .. قد أحبا رشيد ووقعا فى غرامها .. كلّ من منظاره الخاص وظروفه الآنيّه.

فالجنرال مينو أحب فتاة جميلة من رشيد. أما الجنرال ويكوب فقد أحب رشيد الجميلة.

أراد مينو بحبه للفتاة الرشيدية .. زبيدة البواب .. والزواج منها أن يشعر بدفء الأسرة التى حرمه منها الأسطول الإنجليزى الذى يرسو أمام السواحل الشمالية لمصر ليقطع أي أملٍ فى إتصال بين الحملة الفرنسية والأهل فى فرنسا، فشعر مينو بالحرمان العاطفى والحنين الأسري .. فأراد أن يعوض هذا وذاك بتكوين أسرة علها تعوضه عن بعض ما يقاسيه من الحرمان العائلى والغربة عن الأهل والوطن.

فتزوج بفتاة من رشيد .. وأثمر هذا الزواج القائم على العاطفة .. مولوداً : " سليمان".

أما الجنرال ويكوب فقد أحب رشيد كلها .. حب تملّك .. أحب أن يكون حاكماً عليها .. أحبها بفكرٍ إستعماريٍ كان سائداً فى مجتمعه الإنجليزي

وهذا الحب دائما مصيره الفشل .. لأن أحد أطرافه يكون الأقوى .. وسيلة الإتصال فيه الرهبة لا الرحمه .. والسطوة لا اللين .. فينقطع الإرسال العاطفي. وانبعاث الإرسال من طرفٍ واحد لا يجد غالباً من يستمع إليه أو يتجاوب معه. وهذا ما حدث مع ويكوب.

***

وصل الموكب إلى حي القناصل .. وتقدمهم القنصل ووقف على باب القنصلية .. يرحب بالقادة العسكريين ويدعوهم إلى الدخول.

...

هدوء مُريب :

كان الهدوء يلف المدينة .. فخلد الجنود إلى الإسترخاء ..وجلسوا فى ظل البيوت يلتمسون بعض الراحة .. بعضهم يسند ظهره إلى جدرانها .. وبعضهم نام على الأرض من شدة التعب والإجهاد وبعضهم نام فى الحدائق التى تنتشر هنا وهناك.

والتف أفراد الجالية الإنجليزية يحيطون بالجنود .. يبتسمون لهم و يتعارفون عليهم .. ويشرحون لهم ما غمض عليهم من أشياء يرونها فى رشيد لأول مرة ! غير أنهم لم يستطيعوا أن يفسروا لهم سبب هذا الهدوء المريب الذى يلف المدينه! أين الناس ؟ أين الحامية ؟ وكيف ابتلعتهم الأرض هكذا فلم يظهر منهم أحد فى الشوارع ؟

نعم .. لم يظهر أحد فى الشوارع فى ذلك الصباح .. ومع ذلك كانت آلاف العيون ترصد حركات الإنجليز من خلف هذة النوافذ الضيقة.

وفجأة ارتفع صوت إلى عنان السماء .. ما هذا الصوت الجهوري الذى بدّد هذا السكون ؟ كان الصوت يأتى مجلجلا من فوق مئذنة :

" الله أكبر .. حيى على الجهاد."

إتضح الآن كل شيئ .. ليسوا فى حاجة إلى السؤال عن سبب هذا الهدوء المريب.

وبدأت المعركه.

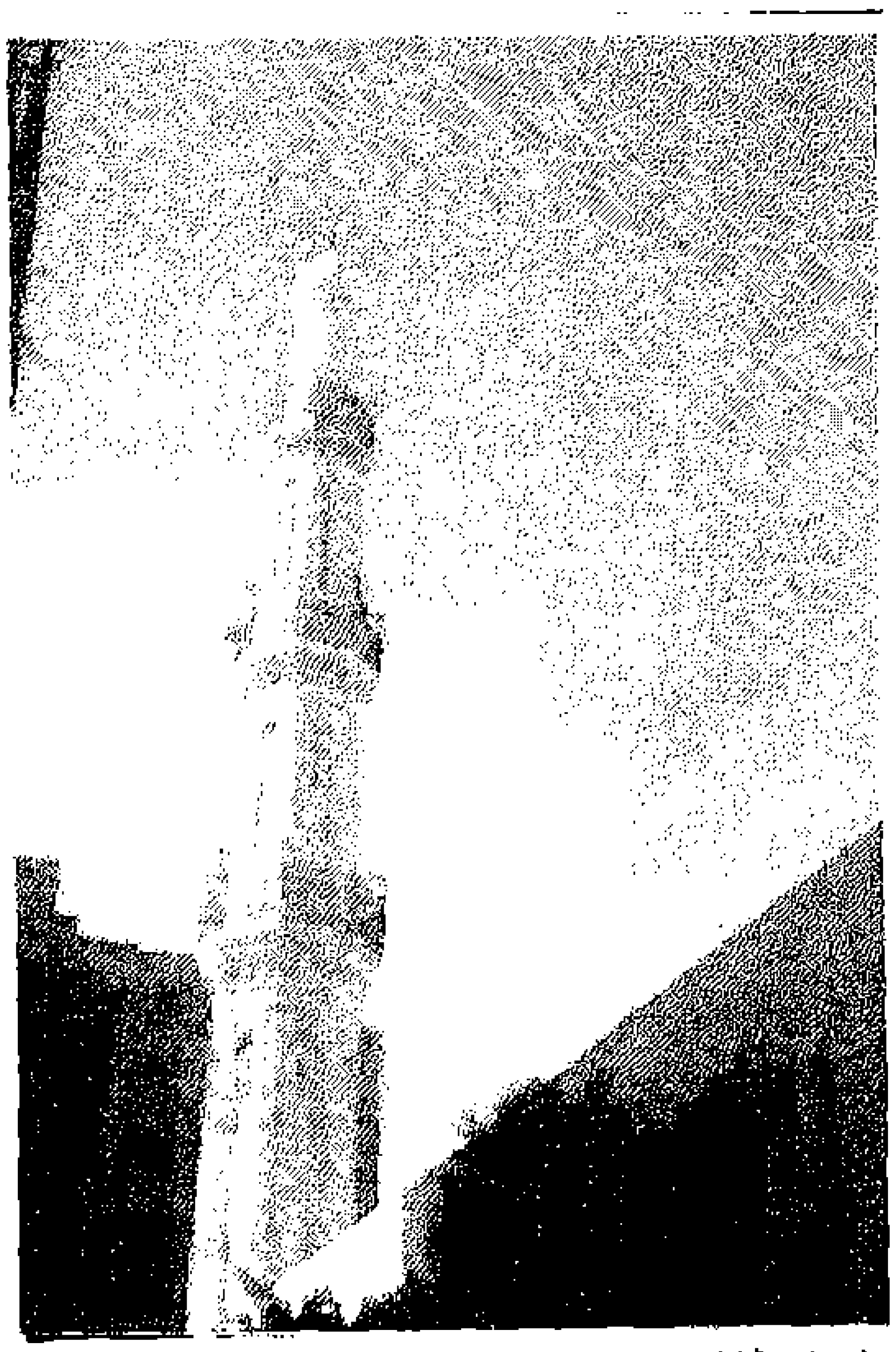

(مئذنة مسجد زغلول حيث إنطلقت دعوة الجهاد : الله أكبر)

الباب السابع

سير المعركة :

عندما إنطلقت الإشارة، إنطلق أهل رشيد ورجال الحامية .. كل فرد يعرف دوره الذى أتفق عليه. كل البيوت فيها " السلاح " الذى يحتاجونه خرجوا جماعاتٍ كطيرٍ أبابيل .. من الحارات والأزقه .. يصيحون فى وجه الجنود الإنجليز " الله أكبر .. الله أكبر " .. فساد بينهم الذعر .. وعمتهم الدهشه .. وأخذ منهم الخوف كل مأخذ .. وزلزلوا زلزالا شديدا.

يقول الجبرتي : (.. هجموا عليهم واختلطوا بهم حتى أبطلوا نيرانهم وأدهشوهم بالتكبير وقبضوا عليهم ونبحوا الكثير منهم وحضروا بالأسرى والرؤوس.)

وانهالت على الانجليز الحجارة من فوق الأسطح .. وصب على رؤوسهم حمم من الزيت المغلي .. وتفجرت النوافذ بماءٍ مُستعِر .. وهجم الرجال والصبيان يعملون فيهم الضرب بالعصي والنبابيت .. ويقاتلونهم بالآلات الحديدية والسكاكين .. بل ويصارعونهم بالأيدى العارية من الآلات.

وانطلق البارود من بنادق الإنجليز .. ليرد عليهم رجال الحامية ببارود أشد .. من طاقات المنازل، ومن نواصي الطرقات، ومن جوف الأزقة المظلمة.

•••

خرج الجنرال ويكوب من حيي القناصل مسرعا عند سماعه لطلقات البارود وتكبير الأهالى وصرخات جنوده.. فعلم أن فى الأمر خدعة .. وأن إختفاء الأهالي من الطرقات كان ضمن خطة محكمة. فامسك سلاحه فى يده واندس بين جنده يحمسهم على القتال وينتقل بينهم من مكان إلى مكان.

وظل الماء المغلي والزيت المغلي ينصبان صباً من النوافذ فوق رؤوس المستظلين بجدران البيوت .. فيشوي الوجوه والأبدان.

وكانت النسوه تزغردن حينما يفعلن ذلك .. وسُمعت أول زغرودة من بيت بسيوني بشارع دهليز الملك .. تلتها أخرى من بيت أبوهم. ثم انطلقت الزغاريد تدوى فى سماء رشيد .. تسجل نتيجة المعركة .. مع كل هدفٍ يحرزنه.

وكانت أشد الأماكن إلتهاباً .. تلك المنطقة التى تفصل بين منزل رمضان فى شارع دهليز الملك حيث تحصن رجال الحامية .. وبوابة السور الغربى حيث جنود الحملة يعسكرون حول البوابة .. وسُمع تبادل للبارود بينهما كثيف.

واستمر القتال فى الشوارع والأزقة والساحات .. بعض الجنود الإنجليز يطلق البارود .. وبعضهم يطلق ساقيه للريح هربا من هذا الجحيم .. وبعضهم من أخذته المفاجأة فرمى بندقيته على الأرض فأخِذ أسيرا .. وما هي إلا بضع ساعات .. حتى انتهت المعركة .. خرج منها من أعتدُيَ عليه منتصراً .. وباء المعتدِى بالهزيمة والإندحار .. سالت على الأرض دماؤهم وامتلأت بجثثهم .. وأسر بعضهم .. وقتل قائدهم .. وفر من بقي عبر البوابة راجعين إلى قائدهم فريزر فى الاسكندرية ينعون ما حدث لهم من هزيمه.

وبعد المعركة .. انطلق من فوق المآذن، صوت المؤذنين يؤذن لصلاة الظهر .. الذى حان موعده منذ ما يقرب من ساعة .. ودخل المجاهدون يصلون .. صلاة الظهر .. وصلاة الشكر.

***

حصاد المعركه :

لم يمر على دخول الإنجليز إلى المدينة أكثر من سبع ساعات حتى انتهت المعركة على الشكل الذى سلف. و قتل من الانجليز 170 و جُرح250، و أسر 120

(ستلاحظ أن الإحصائيات متضاربة فى هذه الأرقام. وسأورد الإحصائيات التى ذكرها مستر " ميسيت " الملحق العسكرى الانجليزي فى القاهرة فى تقاريره وهي : 185 قتيلا 282 جريحا من كل الرتب العسكرية (467) . وذلك من إجمالى 1400 .)

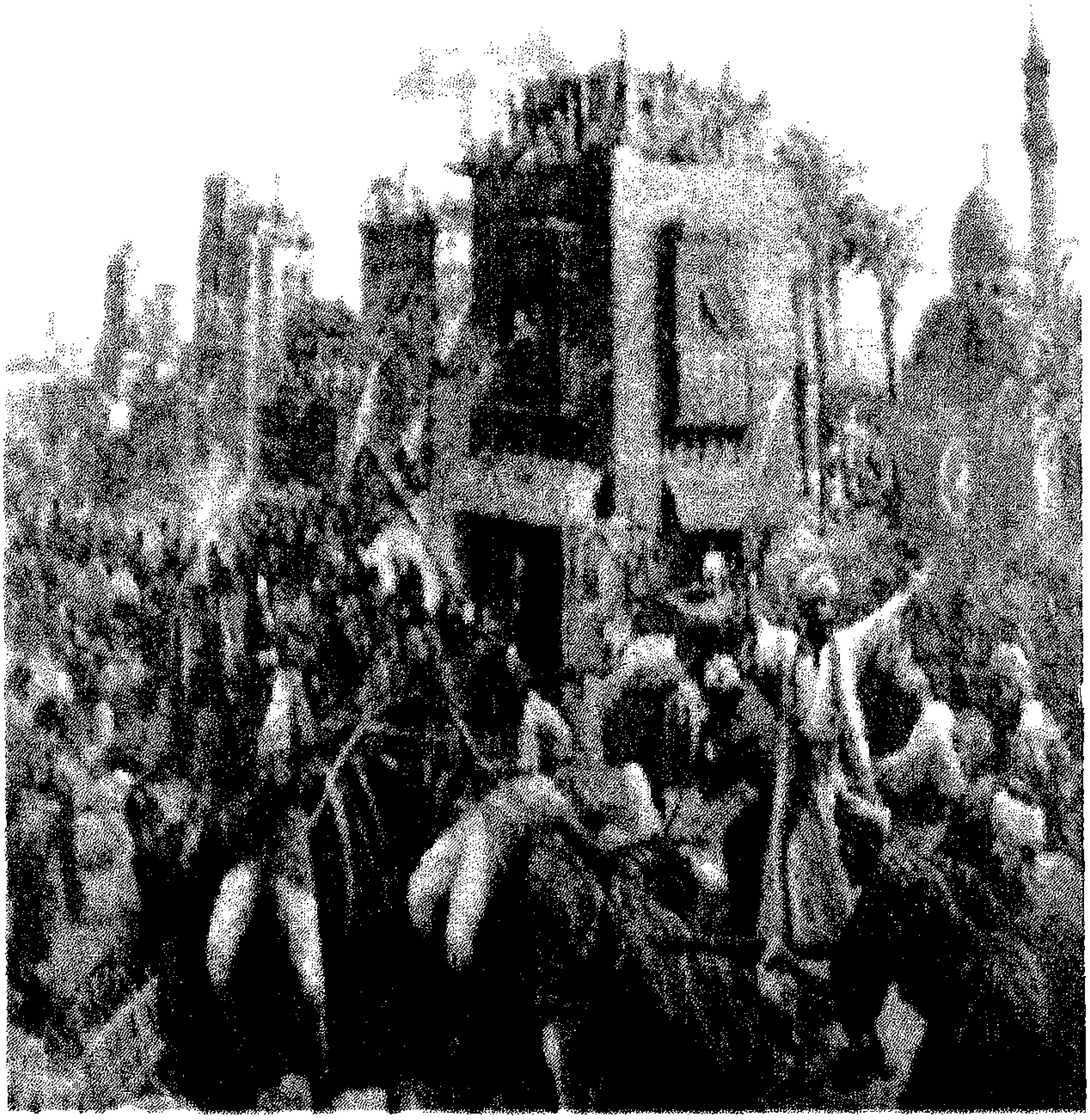

(مقـاومة أهل رشيد للحـملة)

***

وكان من بين القتلى القائد ويكوب.

فلم تمر لحظات على بدء المعركة حتى سقط على الأرض مضرجا بالدماء وسط أشلاء جنوده بعد أن أصابته بارودة إخترقت رأسه.

يقول من رأى جثته على أرض المعركة، أن ابتسامة عريضة كانت ترتسم على وجهه. وخده الأيمن على الأرض وكلتا يديه حول رأسه كأنما يضم أرض رشيد إلى صدره .. أو تضمه هي إلى صدرها .. يسيل الدم

من رأسه على ترابها و يبدو على قسمات وجهه شعور بالرضا .. هل كان راضيا لأنه مات فى المدينة التى أحبها فى خياله وتمنى ألا يفارقها طوال حياته ؟ من يدرى ؟

يقول الإنجليز فى مراجعهم :

(General Meade took a serious wound to the head and command devolved onto Lieutenant Bruce who managed to extricate his command from the streets of Rosetta and order a retreat.)

تقول الترجمة :

(وأصيب جنرال " ميد " بجرح خطير فى رأسه فانتقلت رئاسة الحامية إلى النقيب " بروس " الذى أصدر أوامره بسرعة مغادرة شوارع المدينة والإنسحاب منها.)

***

عندما تصدق النوايا بين الشعب والحاكم :

وهكذا دارت على أرض رشيد ملحمة من أقوى ملاحم الكفاح الشعبى ضد الغاصب الدخيل. فعندما خلصت النيه على المقاومة، هيأ الله لأهل رشيد رجالا مخلصين كانوا عونا لهم على الوقوف بثبات أمام الغزاة .. لم يرهبهم عدد الغزاة وعدتهم .. لم يضعفهم أن يعلموا أنهم جنود الإمبراطورية البريطانية .. وأنهم قد استولوا على الإسكندرية بيسر وسهوله دون مقاومة تذكر.

وهكذا عندما تصدق النوايا بين الشعب والحكام .. تصنع المعجزات.

لم يرهب أهل رشيد أنهم عزل من السلاح. لاسلاح معهم إلا سلاح الإيمان. ولا مدد يأتيهم إلا مدد الأمل فى الله. ولا حصون تمنعهم من العدو إلا اليقين بنصر الله العزيز الحكيم. حرصوا على الموت، فكتبت لهم الحياة .. وحرصوا على الشهادة .. فكتب لهم الخلود أبد الدهر فى صفحات المجاهدين.

وما الأمر الذى أصدره أولى الأمر فى رشيد – على بك السلانكلى والشيخ حسن كريت – بإبعاد سفن الحامية التركية الراسية أمام شواطئ رشيد فى النيل إلى الضفه الشرقية من النهر.. إلا لثقه إيمانية فيما عند الله من نصر .. ولكي ينقطع الرجاء فى الأسباب ولا يبقى إلا الرجاء فى مسبب الأسباب.

وهكذا ينصلح الجسد : الشعب .. إذا انصلح الرأس : الحكام.

فبفضل هذا المحافظ الشجاع والشيخ حسن كريت المجاهد الكبير.. ومؤازرة علماء القاهرة المعنوية لهم ظهر المعدن النفيس لشعب رشيد. . .

ما أسعد أمة يصل إلى سدة الحكم فيها رجال شرفاء .. فيدفعون بها إلى مصاف الدول العزيزة الجانب .. فيخلّد التاريخ أسماءهم فى صفحات الشرف.

وما أتعس أمة يصل إلى سدة الحكم فيها أشباه رجال جبناء .. فيهوون بها إلى مدارج الدول المهيضة الذليلة .. فيلقى بهم التاريخ فى مصارف النفايات البشرية.

***

ماذ قال الجبرتي عن معركة رشيد ؟

ذكر الجبرتي عن واقعة رشيد ما يأتي:

"في يوم الجمعة رابع عشرين محرم سنة 1222 وردت أخبار من ثغر رشيد يذكرون بأن طائفة من الإنكليز وصلت الى رشيد في صبح يوم الثلاثاء حادي عشرينه (أي 31 مارس سنة 1807) ودخلوا الى البلاد وكان أهل البلدة ومن معهم من العساكر متنبهين ومستعدين بالأزقة والعطف وطيقان البيوت فلما حصلوا بداخل البلدة ضربوا عليهم من كل ناحية فألقوا ما بأيديهم من الأسلحة وطلبوا الأمان فلم يلتفتوا لذلك وقبضوا عليهم وذبحوا منهم جملة كثيرة وأسروا الباقين. وأرسلوا السعاة الى مصر بالبشارة فضربوا مدافع وعملوا شنكا. وخلع كتخدا بك– نائب محمد على – على السعاة الواصلين وأسرعت المبشرون من أتباع العثمانيين وهم القواسه الأتراك بالسعي إلى بيوت الأعيان يبشرونهم ويأخذون منهم البقاشيش والخلع وصار الناس مابين مصدق ومكذب."

***

وماذا قال الانجليز عن هذه المعركة ؟

تعالوا معى الآن نقرأ ماكتبه الإنجليز أنفسهم عن هذه الواقعة :

(The small column reached Rosetta and marched into the maze of narrow streets of a seemingly deserted town, before a withering fire opened up from every conceivable darkened window.)

(وهكذا انتشرت القوة الصغيرة التى وصلت إلى رشيد فى شوارعها الضيقة والتى كان يبدو للعيان أنها مدينة مهجورة، قبل أن تفتح عليهم النار من كل فتحة مظلمة فى البيوت، يحتمل أنها نافذة.)

...

ويبدو أن مستر " ميسيت " الملحق العسكرى الانجليزى كان يشعر بوخز الضمير بعد هذه الهزيمه، فهو الذى زين للجنرال فريزر احتلال رشيد. خشى مستر " ميسيت " أن أن يوجه فريزر له اللوم أو أن يخبر رؤساءه بما حدث منه. فأسرع بإرسال تقرير إلى رؤسائه فى لندن يشيد بنجاح الحملة على رشيد .. وكل شيئ تمام !

(Missett's agent affirmed that the town was actually taken and the men relaxing when the retreat sounded, Missett was to send these and other accounts of the action to Britain. Whatever the truth is the losses speak volumes, 185 killed, 282 wounded all ranks out of some 1400.)

تقول الترجمة :

(أكد مندوب ميسيت له أن المدينه قد أحتلت بالفعل وأن الجنود شعروا بالارتياح عندما حدث الإنسحاب، وأرسل ميسيت هذه التقارير إلى بريطانيا. ومهما كانت

الحقيقة، فإن الخسائر المسجلة هي : 185 قتيلا 282 جريحا من كل الرتب العسكريه. وذلك من من إجمالى 1400 .)

...

الأجانب فى رشيد :

انتهت المعركة على هذا الشكل المفاجئ .. كان الناس مابين مصدق ومكذب .. مابين مبتهج وحزين.

كان أكثر الناس حزناً فى ذلك اليوم هو مستر بتروتشى القنصل الإنجليزي فى رشيد .. لقد أصبح أضحوكة بين القناصل .. كان منذ أسبوع فقط يكاذ يطير فرحا بقدوم الحملة الانجليزية ونجاحها فى احتلال الاسكندرية .. وكان هو الذى كتب التقارير التى رفعها للجنرال فريزر بالاسكندرية يدعوه فيها، بل يحرضه على احتلال رشيد .. وذلك لما فى نفسه من حسد على القنصل الفرنسي وعلى المكانة التى يحظى بها فى رشيد من الأتراك والأعيان وبعض الرسميين .. فتركيا صديقة فرنسا .. والخليفة التركي خليفة المسلمين وله السمع والطاعة.

لقد بدأ بعض التجار الإنجليز يستعدون لمغادرة رشيد والعودة للإسكندريه وربما يسافرون منها إلى انجلترا فرأس المال جبان وهم بحسهم التجاري يشعرون أن الأيام القادمة ليست فى صالحهم.

وكان أشد الناس فرحا هو بالطبع القنصل الفرنسي ومن بقي معه من الفرنسيين فى رشيد. وبدأ من غادر منهم إلى القاهرة يفكر فى العودة إلى رشيد.

أما باقى الجاليات والقناصل .. فكانوا مابين سعيد وشامت .. لكن لايظهر من ذلك شيئ على تصرفاتهم أو وجوههم .. فنحن فى الحيى الدبلوماسي وكل تصرف مرسومٌ محسوب.

رشيد .. بعد المعركة :

كانت شوارع رشيد ممتلئة بالقتلى والجرحى من الإنجليز.. وأمام بيت المحافظ كان الأسرى بالمئات .. يجلسون على الأرض وقد قيدت الأيدى من خلاف.

وكان من المناظر التى تدعوا للرثاء فى

ذلك اليوم البهيج منظر أفراد الحامية التركية .. الذين شاركهم الأهالى لأول مره فى ساحات القتال .. خشي رجال الحامية أن يقلل هذا من شأنهم فى نظر الناس وينسبون النصر فى المعركة إلى الأهالى فلا يحصلون على ما تعوّدوا الحصول عليه من هبات ومنح (بقشيش).

(أفراد الحاميةالتركية)

فقد كانوا بعد كل حرب يفوزون فيها يستولون على ماتقع عليه أيديهم .. من الحوانيت والمقاهى والبائعين بل كانوا يستولون على بعض الدور ويخرجون منها أهلها ويسكنون فيها .. أما اليوم فقد اكتفوا بطلب البقشيش. فكانوا يذهبون إلى التجار والأعيان ويخبرونهم إنهم هم الذين هزموا الإنجليز وأنهم يطلبون منهم " البقشيش " .. فكان التجار يعطونهم البقشيش .. ليس خوفا منهم كما كان يحدث من قبل ، بل فرحا بالنصر الذى تحقق، وشفقة عليهم.

فهؤلاء الجنود جاءوا من بلاد الألبان وغيرها من البلاد التابعة للدولة العثمانية .. جندتهم الدولة وبعثت بهم فى الولايات التابعة لها ليكونوا لها جنودا .. وكان راتبهم لايكاد يكفيهم .. إن هم أخذوا رواتب أصلا ! فكثيرا ما كانت هذه الرواتب القليلة تتأخر عليهم، فكانوا يلجأون إلى هذه الطرق .. مثل كثير من المجندين ..!

وكان التجار والأعيان من الأتراك يعطونهم الديوك الرومية التى اشتهروا بتربيتها فى بيوتهم .. وهي كما تعرف ديوك كبيرة الحجم ريشها أسود ووجهها أحمر يتدلى على منقارها عرف طويل أحمر اللون.. مثل اللون الذى يرتديه الجنود الانجليز.

فكان الأتراك يعطون رجال الحامية الديك الرومي ويقولون لهم :

(خذ " البرشي " ، وادعو للسلطان سليم بالنصر على أعدائه.)

وقد أطلقوا هذا الإسم " البرشي " على الديوك الرومية وهو مأخوذ من اسم القنصل الإنجليزي .. بتروتشى.

وصارت هذه الكلمه .. بتروتشى .. تطلق بعد أن حُرِّفت إلى .. برشى .. على كل شخص يريد شيئا ولا يقوم هو بأدائه .. ينتظر من الناس أن يؤدونه عنه كما فعل بتروتشى عندما أراد من فريزر أن يحتل رشيد فأغراه بالتقارير التى صور له فيها بأنها سوف تستسلم بمجرد دخول الحملة الانجليزية إليها .. برشى .. !

•••

وفى البيوت والحارات وعلى المقاهي .. كانت أحداث المعركة يعاد صياغتها من جديد .. كل شخص يروى ما حدث منه وما حدث له .. ولو جمعت هذه الحكايات لبعضها البعض .. لخرجنا فى النهاية بأحداث معركة جديده .. لم تحدث على أرض رشيد .. ولا قام بها هؤلاء الرشايده !

لكنها حكاوى لايمل الناس من تكرارها والإنصات إليها بشغف .. حتى لو تكررت من قائلها الذى يضيف عليها كل مرة .. وحتى لو استمع إليه من سمعها من قبل منه كل مرة.

حتى الأطفال .. كانوا يحكون قصص بطولة قاموا بها .. لكن فى الخفاء .. وهم لا يكذّب بعضهم البعض .. فكلهم محتاج إلى من يصدّقه.

كان الفرح عظيما .. يغفر كل هفوه .. وكان النصر كبيرا .. يحتمل كل شطحة خيال.

•••

أما السفن التى أمر على بك محافظ رشيد بذهابها إلى البر الشرقي، فقد كان من فيها من الرجال يسيرون على شاطئ النهر الشرقي حتى يصلوا بمحاذاة مسجد أبى مندور فيستطيعون من ذلك المكان القريب مشاهدة تصرفات وتحركات جنود الإنجليز الذين تخلفوا عن دخول رشيد فوق تل أبى مندور. وعندما وجدوا أنهم يغادرون الموقع على عجل .. تيقنوا أنهم ينسحبون .. فعبروا النهر فى مراكبهم إلى الموقع وصعدوا فوق التل وجمعوا ما تركه الجنود المنسحبين من خيام وملابس وأسلحة .. وتركوا ما تبقى من طعام لكلاب الغيطان المجاورة ليحتفلوا هم أيضا بحلاوة النصر. ورجعت السفن إلى رشيد محملة بالغنائم.

•••

وكان محافظ رشيد قد أمر بإخلاء الدور الأول من مبنى المحافظة وتجهيزه لاستقبال الجرحى وعلاجهم .. وقد تطوع لهذا العمل الأطباء من القنصليات من مختلف الجنسيات .. وشارك في هذا من له خبرة في الغيارعلى الجروح.

...

أما الأسرى فقد استقر الرأي على نقلهم إلى قلعة قايتباي ببرج رشيد تحت حراسة الحامية التركية مع التشديد بحسن معاملتهم وتقديم ما يلزم لراحتهم وتسهيل الزيارات لهم من بني جنسهم الأوربيين .

وكان يتم هذا العمل بحضور القنصل نفسه، حتى أنه أرسل تقريرا لرؤسائه يقول فيه :

(... that the prisoners received "noble treatment".)

(.. أن أسرى الحرب لقوا معاملة تليق بالشرف والنبل العسكري.)

* * *

أما القتلى، فقد تم فصل الرؤوس عن الجثث.

تكومت الجثث فوق بعضها .. وربما علت جثة جندى بسيط جثة القائد الكبير .. فقد تلاشت الرتب !

وتكومت الرؤوس فوق بعضها.. وربما علت رأس غبي رأس الذكي .. فقد تساوت الرؤوس !

...

وتم عمل مقابر للجثث خلف السور الغربي لمدينة رشيد، عند كوم الرمال. وقد أشرف القنصل الانجليزي بنفسه على إعداد هذه المقبرة وقد خصص له المحافظ العمال وكل ما يحتاجه من أدوات لهذا الغرض. وتم دفن القتلى وبني سور من الحجارة حول هذه المقبرة وعين حارس على بابها.

وفي فِناء أرض هذا الفَناء .. قام القنصل الانجليزي وبعض أفراد الجالية بزرع شجيرات صغيرة .. علّها تكبر وتقوى مع الزمن .. وتكون دليل حياة فى وسط هذا الممات !

* * *

(ولم تمض سنوات قليلة حتى كان هذا المكان يعج بالإنجليز من جديد .. جاءوا مع الحملة الانجليزية الثانية على مصر عام 1881 عندما هزموا عرابى باشا. جاءوا لزيارة أقاربهم وبنى جنسهم الذين دفنوا فى رشيد عام 1807.

ومن عجب، فإن الإنجليز الذين عاشوا فى هذه الفترة فى رشيد .. بعد احتلال مصر 1881.. كانوا يدفنون بجوار ذويهم فى رمال رشيد .. وبذلك أصبحت رشيد مقبرة للإنجليز .. غُزاةً ومدنيين !)

***

أما رؤوس القتلى، فقد إستقر رأي المحافظ والشيخ حسن كريت وأعيان رشيد .. على أن تعلق رؤوس القتلى فى نبابيت وترسل إلى القاهرة – مع الجرحى والأسرى – وتسلم لمندوب الوالي هناك فى القلعة .. ليراها الناس وتعم الفرحة بهذا النصر.

***

الباب الثامن

الرشايده يصلون القاهرة :

وما أن سمع الرشايده بأن رؤوس القتلى سوف تنقل إلى القاهرة .. حتى أسرع بعضهم بما تحت يده من الرؤوس .. التى اعتبروها ملكية خاصة .. فوضعوها على نبابيت وركبوا المراكب فى النيل واتجهوا جنوباً نحو القاهرة.

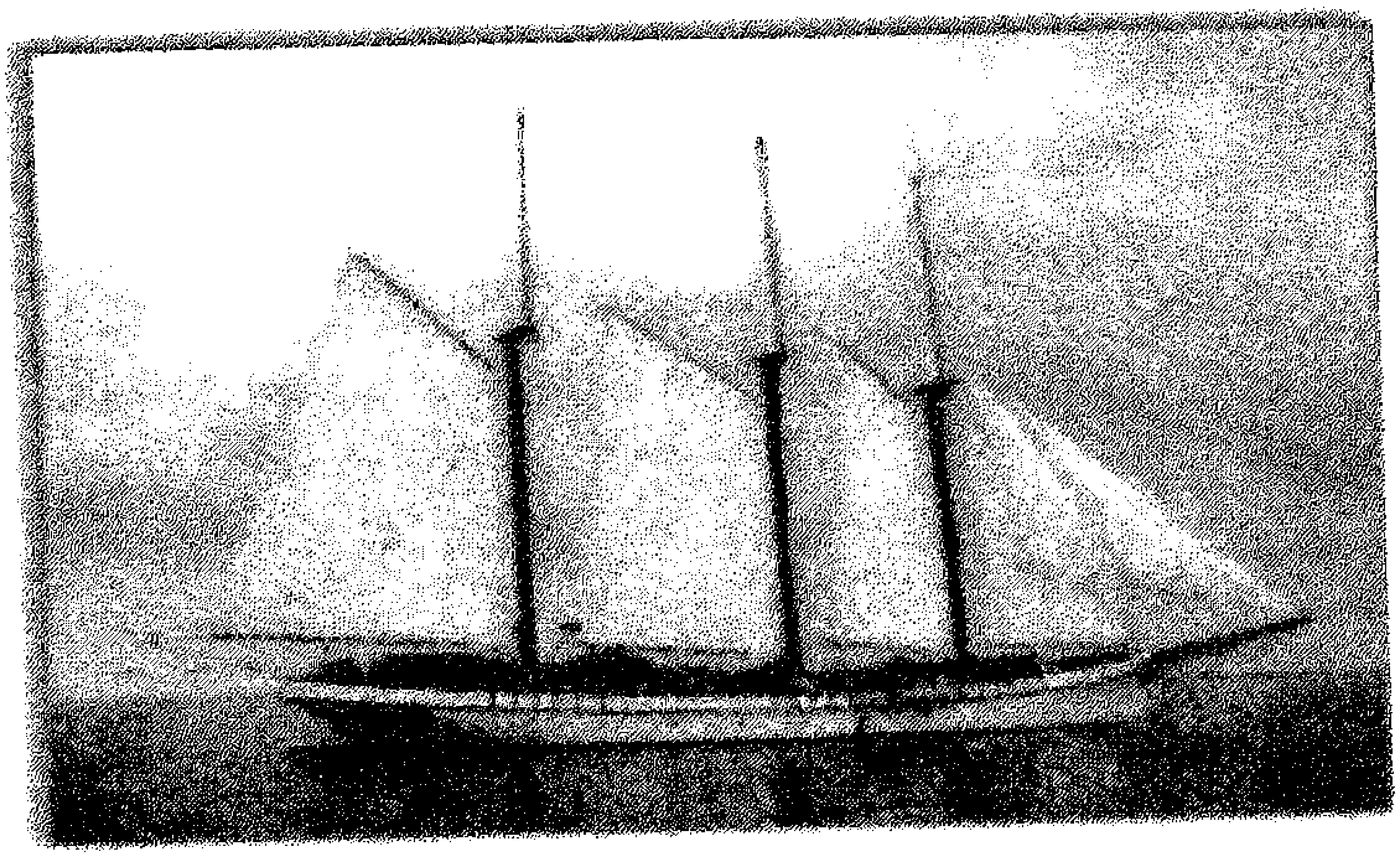

(المنتصرون من رشيد .. ورؤوس القتلى فى الطريق إلى القاهرة)

(خرج أهل القرى الواقعة على النيل ليشاهدوا موكب أهل رشيد وهم يحملون رؤوس القتلى على النبابيت متجهين إلى القاهرة)

واجتمعت حولهم المراكب تحمل المسافرين معهم من رشيد ليشاركونهم الرحلة، وتحمل العازفين يعزفون المزمار وشعراء السيرة الهلالية ينشدون مواويل الحماسة وقصص أبو زيد الهلالى. كانوا وهم يمرون على المدن والقرى الواقعة على شاطئ النيل إلى القاهرة، يستوقفهم الناس ليشاهدوا رؤوس هؤلاء القتلى من الإنجليز .. ويروا بعيني رأسهم ما سمعوه بآذانهم من قبل ولم يصدقوه.

كيف هزم الرشايده هؤلاء الإنجليز الذين هزموا نابليون فى مصر منذ سنوات قليلة وأغرقوا أسطوله فى خليج أبى قير ؟ كيف ؟ كيف ؟

ويدأ أهل القرى التى يمرون عليها يخرجون لمشاركتهم فرحة النصر، فيسيرون فى موكب على الجسر موازياً لموكب السفن فى النيل.

كان موكب النصر يتزايد من قرية إلى أخرى .. وكأنما كان المصريون جميعا متعطشون لهذا الشعور بالنصر، والإحساس بالبهجة. شعروا أن هذا النصر نصرهم .. وهذا الإنجاز الضخم من صُنع أيديهم .. فلعلها المرة الأولى التى يهزم فيها المصريون .. غزاة أجانب بعد أن كانت الحرب وقفاً على جند المماليك !

وواصل الموكب مسيرته نحو القاهرة. وعندما وصلوا إلى العاصمة .. ورست المراكب فى بولاق .. وجدوا خلقاً كثيرا ينتظرونهم فى الميناء .. فقد طارت الأخبار مع الحمام الزاجل، فما أسرع إنتشار الأخبار فى مصر.

جاء الناس ليعيشوا هذا الحلم .. وليتذوقوا طعم أن تكون منتصرا بنفسك على عدوك. وهم الذين أعتادوا أن ينتصر لهم جندٌ يُباعون ويُشترون.

•••

ماذا حدث للمنتصرين فى القاهرة ؟

وفى القاهرة .. بدأ الموضوع يأخذُ شكلاً آخر.

فلأن سلطان المسلمين الخليفة التركى رجلٌ صالح والإنجليز قد حاربوه وهاجموا دولته .. ولأن الوالي محمد علي مجاهد كبير يجاهد المماليك فى الصعيد ويحارب المفسدين ويدافع عن الشعب المسكين، فقد جعل الله أهل رشيد يهزمون الإنجليز من أجل السلطان الصالح .. والوالي المجاهد ! فلا يعقل أن تنهزم بريطانيا

العظمى على أيدى قلة من الناس .. لا سلاح ولا جيش .. ولكنها بركة أولى الأمر وحكامنا الصالحين !

***

وسار الموكب إلى القلعة .. يتقدمه جندي من الجنود الأرناؤوط .. جنود محمد علي .. يحمل العلم ذو اللون الأحمر يتوسطه هلال أبيض بداخله نجمة بيضاء.

ومن ورائه الجنود يحملون النبابيت عليها رؤوس القتلى الإنجليز.

عندما رأى المنتصرون من رشيد ذلك .. وهم من صنعوا هذا النصر يسيرون خلف الموكب لا أحد يلتفت إليهم ولا يشعر بهم .. شعروا بغصة في الحلق ومرارة فى النفس .. وأنهم غرباء عما يدور حولهم وكأن الأمر كله لايخصهم.

لقد انتصروا فى رشيد .. وسُلب منهم النصر فى القاهرة !

نحن هنا فى القاهرة .. العاصمة .. وفى العواصم يتحول النصر الشعبي دائماً إلى نصرٍ حكومي .. والملكية الخاصة للأفرد .. إلى ملكية خاصة أيضا ..ولكن للحكام ! وكله بالقانون.

...

النظرة للرشيدي بعد النصر :

للناس دائما رأيّ آخر ينفذ إلى حقيقة الأشياء .. كان هذا الإنتصار الذى تحقق بفضل الله على أيدى الرشايده .. وهذا الموكب تتقدمه رؤوس القتلى الإنجليز ماراً بمدن وقرى الدلتا .. قد رسخ ملامح البطولة لهذا الرشيدي فى أذهان الناس .. بدأ الناس يتعرفون على ذلك الرشيدي الشجاع المقاتل .. الذى يسخر من أقسى المواقف صعوبة وأشدها خطراً .. أصبح الرشيدي بعد النصر وكأنه كائن جديد .. مُتَقِد الذكاء .. شديد الدهاء.

وصل الموكب إلى قلعة الجبل .. مقر الوالي .. وهناك سمعوا آذان الظهر من جامع السلطان حسن.

لقد أبحروا من رشيد يوم الأربعاء .. وها نحن فى يوم الجمعة.

...

فى رشيد .. يعدون الموكب الرسمي للقاهرة :

وفى رشيد .. إجتمع المحافظ وعثمان أغا حاكم المدينة والشيخ حسن كريت وكبار التجار والأعيان وبعض الأهالى فى مسجد زغلول .. كانوا يجهزون لموكب كبير يخرج من المسجد بعد صلاة الجمعة.

وتجهزت المراكب فى المرسى القريب من المسجد لتنقل الأسرى والجرحى ورؤوس القتلى الإنجليز إلى القاهرة.

وعلى شاطئ النيل إلتف عدد كبير من الأهالى والأجانب فى انتظار رؤية الموكب.

إرتفع الآذان من فوق مآذن المساجد .. وارتفعت معه أصوت أجراس الكنائس تتعالى فى الفضاء .. وتعجب الناس .. نحن يوم جمعه، فلم تدق أجراس الكنائس ؟

كانت أجراس النصر !

.. وصعد صوت الآذان مع صوت الأجراس .. فى ضفيرة واحدة .. للرب .. الواحد .. واهب النصر .. شكراً وعرفانا.

...

معاملة الأسرى والجرحى فى القاهرة :

وفى القاهرة لقي الأسرى والجرحى عناية فائقة .. يقول الجبرتى :

(ولما أصعدوا الأسرى إلى القلعة طلع إليهم قنصل الفرنساوية ومعه الأطباء لمعالجة الجرحى ومهد لهم أماكن وميز الكبار منهم والفسيالات فى مكان يليق بهم وفرش لهم فرشات ورتب لهم تراتيب وصرف عليهم نفقات ولوازم واستمر يتعاهدهم فى غالب الأيام والجرنحية يترددون إليهم فى كل يوم لمداواتهم.)

...

النتائج التى ترتبت على انتصار رشيد :

كان لموقعة رشيد تأثير كبير في كل أنحاء البلاد :

1 فقد ملأ قلوب المصريين حماسة وفخرا.

2 -ويدد الهيبة التي كانت للإنجليز في نفوس الناس، تلك الهيبة التي جاءت من انتصاراتهم السابقة على الجيش الفرنسي في مصر وإغراق السفن الفرنسية فى خليج أبى قير، وعلى الأساطيل الفرنسية فى البحر المتوسط.

3 ولقد كان لهذه الواقعة في نفوس المماليك - حلفاء الإنجليز - تأثيرا بالغا. فقد كانت صدمة شديدة لهم لأنها أضعفت أملهم في نجاح الحملة الإنجليزية وجعلتهم ينكمشون في معاقلهم بالوجه القبلي.

4 وبالتالي جعلت الجيش الإنجليزي لا يتوقع المعاونة التي كان ينتظرها منهم.

5 فلا شك أن يبعث هذا النصر فى نفوس الشعب روح الثقة، ويحفزه إلى الإستمرار في المقاومة.

6 ثبتت حكم محمد علي فى مصر.

كل هذه الاعتبارات جعلت لواقعة رشيد من الأهمية شأنا بالغا في قيمته وخطره.

...

أسباب هذا النصر فى رأي الجبرتى :

لا بد هنا من كلمة، قالها الجبرتي حين لخص سبب انتصار الأمة على أعدائها قائلا: " فدهموهم . يقصدالجماهير . من كل ناحية على غير قوانين حروبهم وترتيبهم. "

أي أن النصر الذي حققته الأمة كان بسبب إتباع تكتيك الحرب الشعبية وليس الحرب النظامية : " لأن هذا يكون على غير قوانين المستعمرين الحربية وترتيبهم."

وهذا يثبت صحة الرأي في أن الرد الصحيح على الجيوش النظاميه هو أسلوب الحرب الشعبي

الباب التاسع

(مدافع ستيوارت مصوبة نحو مدينة رشيد .. واستمر القصف 12 يوماً)

فريزر يجهز حملة إنتقاميه ضد رشيد :

وكأن رجال المقاومة فى رشيد قد استشعروا بأن الجنرال فريزر القابع فى الإسكندرية سوف يرسل حملة إنتقامية إلى رشيد بعد أن يفقد أعصابه الإنجليزية الباردة وهو يرى رجال حملته قد رجعوا إليه مهزومين مدحورين!

وربما يكون الأجانب فى رشيد قد تحدثوا فيما بينهم بذلك. ففى زمن الحروب تكثر العيون وينتشر البصاصون ويخبرون بما يتم هنا وهناك . وعلموا فيما علموا أن فريزر يعد العدة لإرسال حملة إنتقام لشرف العسكرية الانجليزية التى دفنت فى رمال رشيد !

ولعل المقاتلين فى رشيد كانوا يتوقعون وصول جيش الوالي من القاهرة للقضاء على فلول الإنجليز المنسحبين من رشيد وهم فى طريقهم إلى الإسكندرية وقد هدّهم التعب وأفزعهم الخوف وكسرت معنوياتهم الهزيمة.

ولعلهم أيضا كانوا يتوقعون أن يأتى الجيش المصري ليعسكر خارج رشيد ليحمى هذا النصر المصري الذى تحقق بأيدٍ مصرية والذى ثبّت أركان مُلك محمد علي فى مصر وأكسبه رضا السلطان العثماني ولي النعم !

لكن شيئا من هذه التوقعات لم يحدث للأسف !

•••

رسائل من رشيد إلى القاهرة :

فلما لم يحدث شيئ مما كان يتوقعه رجال المقاومة من مناصرة الوالي لهم .. أرسلوا الرسائل إلى القاهرة يطلبون الإمداد والسلاح ويحذرونهم من أن فريزر يعد العدة للقيام بحملة إنتقامية ضد رشيد!

دعونى أقرأ معكم ما يقوله الجبرتي :

(.. وفيه حضر مكتوب من ثغر رشيد عليه إمضاء على بك حاكم رشيد وأحمد بك المعروف ببونابارته مؤرخ بيوم الجمعة يذكرون فيه أن الإنكليز لما حضروا إلى

رشيد وحصل لهم ماحصل من القتل والأسر ورجعوا خائبين حصل لباقيهم غيظ عظيم وهم شارعون فى الاستعداد للعود والمحاربه والقصد أن تسعفونا وتمدونا بإرسال الرجال والمحاربين والأسلحة والجبخانه بسرعة وعجلة وإلا فلا لوم علينا بعد ذلك . وقد أخبرناكم وعرفناكم بذلك.)

ولا من مجيب !

***

دور العلماء فى حث الناس على الجهاد :

وتوافدت الرسائل كذلك من رشيد إلى العلماء – زعماء الشعب – فقام السيد عمر مكرم والعلماء يحثون الناس على المقاومة ونجدة إخوانهم المحاربين فى رشيد.

يقول الجبرتي :

(وفيه نبه السيد عمر النقيب – أي السيد عمر مكرم نقيب الأشراف – على الناس وأمرهم بحمل السلاح والتأهب للجهاد فى الإنكليز حتى مجاورى الأزهر وأمرهم بترك حضور الدروس وكذلك أمر المشايخ المدرسين بترك إلقاء الدروس.)

هكذا كان السيد عمر مكرم .. عالماً بأمور الدين.. مدبراً لأمور الدولة (حتى اعتقد الإنجليز فى رسائلهم أنه نائب الوالي.) : فهو فى هذا الظرف .. محاربة العدو .. يأمرالطلبة بالأزهر بترك الدروس .. ويأمر المشايخ بترك إلقاء الدروس .. ليحملوا السلاح ويتأهبوا للجهاد.

فكأنما الجهاد هنا مقدم على طلب العلم : حيث يقول الله سبحانه وتعالى : (وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ.)

استثنى القرآن الكريم فى هذه الآية طائفة صغيرة لتتعلم وتتفقه في الدين ، بينما الغالبية العظمى هم في ساحات القتال.

ويستشف هذا من قوله تعالى " وما كان المؤمنون لينفروا كافة."

أي ما ينبغى لهم أن يفعلوا ذلك.

وكذلك من كون الجهاد ذروة سنام الإسلام بنص الحديث . والله أعلم.

***

موقف كتخدا بك – نائب محمد علي – من المعركه :

هذا ماحدث من الشعب وزعمائه .. حملوا السلاح وتركوا دروس العلم واستعدوا لملاقاة العدو. أما الحكام فكان لهم رأي آخر !

فعندما اكتملت العدة والعتاد التى أمر العلماء بتجهيزها للمقاومة ونجدة المقاتلين على الجبهة فى رشيد .. ذهب السيد عمر مكرم إلى كتخدا بك نائب محمد علي يستأذنه فى خروج المتطوعين لمساعدة المجاهدين فى رشيد .. رفض أن يخرج أحد من القاهرة حتى يأتى " أفندينا " من الصعيد بسلامة الله !

يقول الجبرتي :

(وركب– السيد عمر مكرم – فى صبحها إلى كتخدا بك – نائب محمد علي – واستأذنه فى الذهاب فلم يرض وقال حتى يأتى أفندينا الباشا ويرى رأيه فى ذلك.)

هكذا ! الناس تقاتل وتواجه العدو الغازي .. ويتأهب الناس فى القاهرة للجهاد وامتثلوا " ولبسوا الأسلحة " وكتخدا بك يرفض السماح لهم بالسفر إلى رشيد لينضموا إلى إخوانهم هناك لملاقاة العدو ويطلب منه ألا يفعل شيئا حتى يأتى أفندينا – محمد علي – من الصعيد ويرى رأيه.

ولم يشفع للرشايده أنهم منتصرون لمصر كلها وأنهم على الجبهة يدافعون عن الوطن، ويريدون فقط المحافظه على هذا النصر.

ولم تشفع لهم رؤوس القتلى والجرحى من الإنجليز التى توافدت على القاهرة من رشيد برهاناً على هذا النصر.

لكنه الروتين .. أو شيئ آخر !

يا لحظ مصر المحروسة مع حكوماتها المتعاقبة !

***

أثر معركة رشيد فى بث روح النضال بالقاهرة :

وكأنما شعر السيد عمر مكرم والذين معه من العلماء بضرورة قيام أهالى القاهرة بتحصينها بأنفسهم إعتماداً على جهودهم الذاتية دون إنتظار لمساعدة الوالي .. وأن يسرعوا فى هذه الإستعدادات بعد أن جاء فى الرسائل التى وصلتهم من رشيد كيف أن فريزر يعد العدة لإرسال حملة إنتقامية.

يقول الجبرتي : " وشرعوا في حفر الخندق المذكور وإقامة الاستحكامات ووزعوا حفره على مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجارة وأرباب الحرف والروزنامجي وجعلوا على البعض أجرة مئة رجل من الفعلة وعلى البعض أجرة خمسين وعشرين وكذلك أهل بولاق واشتروا المقاطف والغلقان والفئوس والقرم وآلات الحفر وشرعوا في بناء حائط مستدير بأسفل تل قلعة السبتية ".

•••

قام السيد عمر مكرم والعلماء إذن بتدبير نفقات الاستعداد. وكان حفر الخنادق يتم فى المنطقة بين باب الحديد وبولاق لمنع الإنجليز من التقدم ودخول القاهرة من هذه المنطقة.

وفى النيل قاموا بإغراق المراكب أيضا بين جزيرة بولاق والشاطئ ونصبوا المدافع بين شبرا وإمبابة وبولاق.

•••

محمد علي بالصعيد :

بينما كانت المعركة تدور على أرض رشيد، كان والي مصر محمد علي فى الصعيد يحارب المماليك.

وهنا يجب أن ننبه إلى أن أهل رشيد والمخلصين من أبنائها مثل السيد حسن كريت قد حملوا وحدهم مسئولية جهاد العدو.

فلم يصل محمد علي إلى القاهرة إلا بعد فترة طويلة من الوقت كان

قد إتضحت فيها معالم المعركة وتأكد الفوز فيها للمصريين على الإنجليز .. بدليل هذا السيل من الجرحى والأسرى ورؤوس القتلى

الذى يتوالى وصوله على القاهرة من رشيد .. وفيهم " فسيال " أي ضابط كبير!!!

...

يقول الاستاذ محمد على القصاص :

(نزلت الحملة إلي الأسكندرية في مارس 1807 م، و منها إلي رشيد . و كان محمد علي في الصعيد يطارد فلول المماليك، فوقع عبء المقاومة علي المصريين الذين قاوموا الإنجليز بضراوة في شوارع رشيد و أسروا بعض الإنجليز و قطعوا رؤوس البعض الآخر، فتقهقر الإنجليز إلي الأسكندرية للإحتماء بها.)

الباب العاشر

حملة ستيوارت على رشيد والحماد.

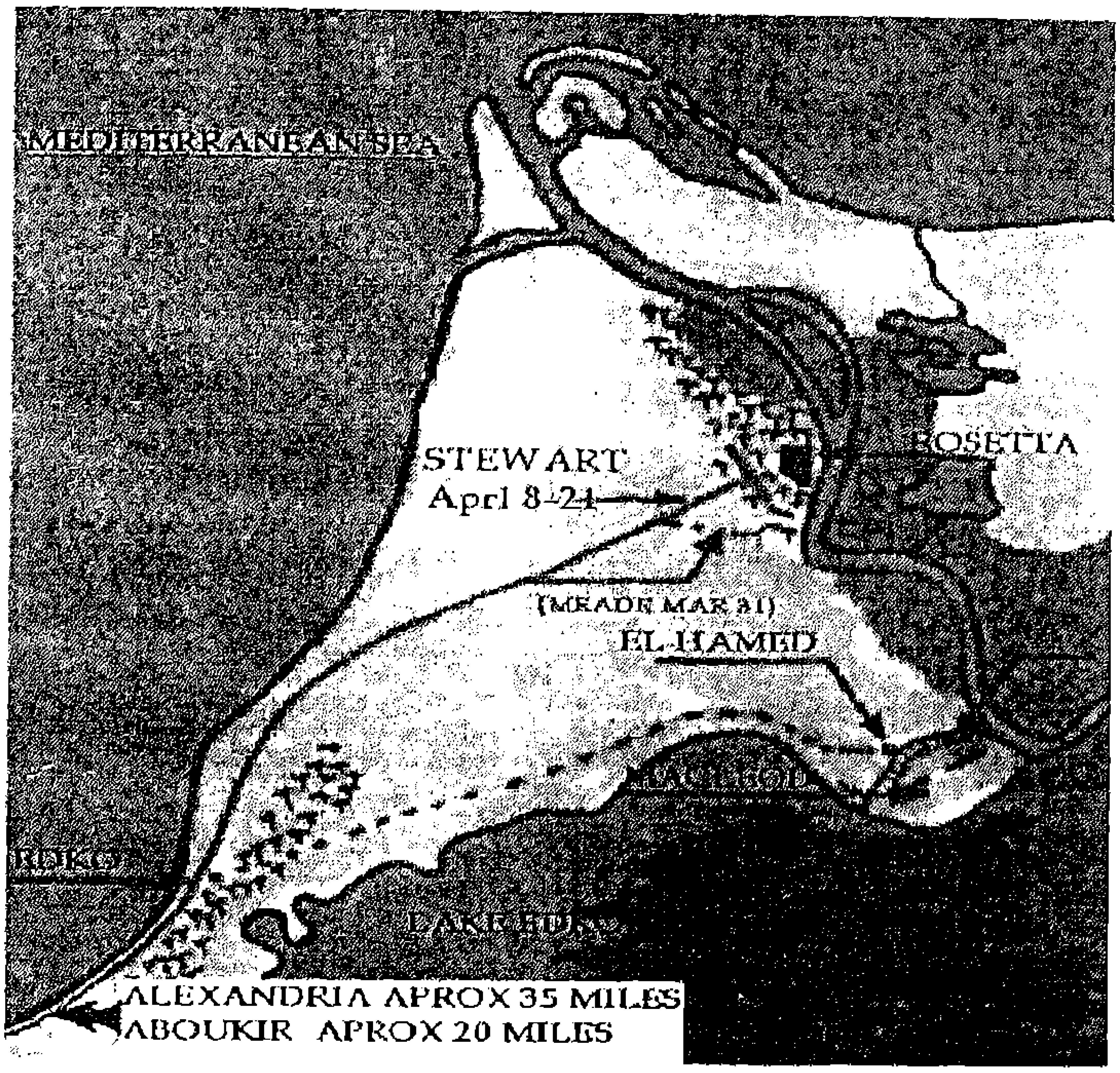

(خريطة تبين أماكن الأحداث التى وقعت أثناء الحملة الإنجليزية على رشيد والحماد)

حملة ستيوارت على رشيد والحماد :

وبدأت نذر الحرب ترعد من جهة الغرب .. من الاسكندرية.

لقد صدق حدس الثوار فى رشيد عندما قالوا بأن فريزر لن يهدأ له بال حتى ينتقم ! وبدوأوا مرة أخرى فى إرسال الرسائل إلى القاهرة يحذرون ويطلبون النجدة : " والقصد أن تسعفونا وتمدونا بإرسال الرجال والمحاربين والأسلحة والجبخانه بسرعة وعجلة وإلا فلا لوم علينا بعد ذلك . وقد أخبرناكم وعرفناكم بذلك."

...

فعندما وصلت فريزرأخبار هزيمة الحملة التى قادها ويكوب على رشيد .. وبدأ سيل الجنود الإنجليز المنهزمين يتوافد عليه فى الاسكندرية، استشاط غضبا لهزيمة رجاله أمام حامية رشيد قليلة العدد هزيلة العده.

وسيصبح وجوده بالإسكندرية مهددا طالما إنه لم ينجح فى قطع خط الإمداد الذى سيصل للإسكندرية عن طريق رشيد التى تتحكم فى الطريق النهري عبر الدلتا.

ثم إن جنوده هُزِموا فى رشيد. وهذا من شأنه أن يبعث روح الحماسة والوطنية فى أهل الإسكندرية فينقلبوا عليه وتبدأ مقاومة لا يعلم مداها إلا الله.

...

وبالفعل .. فإنه فى 3 ابريل – بعد هزيمة الحملة الأولى على رشيد بثلاثة أيام – غادرت الحملة الثانية الإسكندرية متجهة نحو رشيد بقيادة الرجل الثانى فى الحملة الجنرال ويليام ستيوارت على رأس حملة إنتقامية إلى رشيد .. فوصلها فى 7 ابريل ونصب مدافعه فوق تلال أبى مندور ! كان قوام الحملة هذه المرة 2500 جندى ومزودة بالمدافع المحمل على العربات، وعدد وفير من القنابر(كرات من الحديد توضع فى المدافع وتضرب بها أهداف العدو.)

إرسال كتيبه إلى الحماد وحصارها :

وفى طريق الحملة إلى رشيد، أنفذ الجنرال ستيوارت كتيبة بقيادة ماكلود احتلت " الحماد " التى تقع جنوبي رشيد بين النيل وبحيرة ادكو.

وكان الغرض من إحتلال الحماد هو تطويق مدينة رشيد، ومنع وصول المدد إليها من الجنوب، وحماية مشاة الجيش الإنجليزي :

(Intelligence informed Stewart that the Albanians had placed a large body of troops four miles south of Rosetta at El Hamet to control a natural isthmus separating the River Nile (Rosetta branch) from Lake Edko. Stewart decided it prudent to occupy this site in order to guard his right, rear and communications with Edko.)

تقول الترجمة :

(فقد قالت له رجال مخابراته أن الجنود الألبان – الأرناؤوط – قد عسكروا بقوات كبيرة عند الحماد التى تبعد عن رشيد بأربعة أميال من ناحية الجنوب لتتحكم فى البرزخ، المنطقة الواقعة بين فرع رشيد وبحيرة ادكو. فقرر ستيوارت أن من الحكمة أن يحتل هذا الموقع ليحمى ميمنة جيشه، ولا ينعزل عن مدينة ادكو.)

***

لماذا الحماد ؟

إن موقع قرية الحماد على جانب كبير من الاهمية، وعليها يدور محور

القتال لأنها واقعة بين النيل وبحيرة ادكو. وفي شمالها ترعة كانت في ذلك الحين جافة تصل من النيل الى قرب البحيرة، فلو أن الإنجليز أحكموا الدفاع عن موقعهم بها لأمكنهم أن يسدوا الطريق أمام الجيش المصري فلا يستطيع اجتياز ذلك البرزخ ولا الوصول الى رشيد لإمدادها بالنجدة.

حصار رشيد ودكّها بالمدافع :

ضرب ستيوارت حصاراً على رشيد فى 7 ابريل – كما قلنا من قبل – و أمر جنوده بوضع المدافع الثقيلة على تلال أبى مندور وطلب من أهلها الإستسلام .. لكن دون جدوى.

ويلاحظ هنا أن ستيوارت لم يجرؤ على دخول المدينة مباشرة إلا بعد أن يحاصرها حصاراً شديداً، ويدكها بالمدافع والقنابر (القنابل) حتى يضمن القضاء على [illegible] بها.

فقد تعلم الدرس من سابقه ويكوب الذى كان هو ورجال الحملة الأولى فى هذا المكان منذ أسبوع واحد فقط. أي أن الدرس ما زال حيا ينبض، ودماء الإنجليز القتلى فى رشيد لم تكد تجف. بل ربما تكون بعض [illegible] تلال أبى مندور شاهدة على هزيمتهم، وحافزاً [illegible] على الإستسلام [illegible]

فلما لم يستسلم أهل رشيد أمر ستيوارت جنوده بقصفها بالقنابل فى العاشر من إبريل [illegible]

[illegible] بالبلدة، فرد عليهم الأهالى بإطلاق [illegible] طلقات من البنادق، وكان رجال المقاومة يتعقبون الجنود الإنجليز فى الليل [illegible] وديان أبى مندور مما سبب الذعر بين صفوفهم.

...

الحصار والقصف بالمدافع يستمر إثني عشر يوما :

كان الإنجليز يظنون أن ضرب المدينة بالمدافع سيلقي الرعب في نفوس الحامية والأهالي، ويضطرهم الى التسليم، وقد أنذروهم غير مرة بأن يسلموا المدينة، ولكنهم رفضوا.

فقد كان انتصارهم السابق على حملة ويكوب قد بعث في نفوسهم الحمية والحماس، فصمموا على الإستبسال في الدفاع عن مدينتهم.

وبالرغم مما أحدثته القنابل من تخريب البيوت وقتل العدد الكثير من السكان فانهم صبروا واحتملوا هذه الشدائد بشجاعة ورباطة جأش. وكانوا يخرجون من المدينة من آن لآخر لمناوشة القوات الإنجليزية.

واستمر الضرب والحصار نحو إثنى عشر يوما دون أن يستطيع الإنجليز تحقيق أي نصر.

يقول الجبرتي : (وقنبروهم بالقنابر إثني عشر يوما دون طائل.)

...

مُكاتبات من رشيد إلى القاهرة تطلب سرعة الإمداد :

أخذت الرسائل تتوالى من رشيد إلى القاهرة تستعجل النجدة فماذا حدث

يقول الجبرتي : فى رسالة من المجاهد الشيخ حسن كريت : (.. وفى يوم الثلاثاء وردت مكاتبة من رشيد وعليه إمضاء السيد حسن كريت يخبر فيها بأن الإنكليز محتاطون بالثغر ومتحلقون حوله ويضربون على البلد بالمدافع والقنابر وقد تهدم الكثير من الدور والأبنية ومات كثير من الناس وقد أرسلنا لكم قبل تاريخه نطلب الاغاثه والنجده فلم تسعفونا بإرسال شيئ وما عرفنا لأي شيئ هذا الحال وما هذا اليهمال -- الإهمال - فالله الله فى الإسعاف فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر من توقع المكروه وملازمة المرابطة والسهر على المتاريس ونحو ذلك من الكلام . وهي خطاب للسيد عمر النقيب والمشايخ ومؤرخة فى ثانى شهر صفر.)

.. فالله الله فى الإسعاف فقد ضاق الخناق وبلغت القلوب الحناجر!

...

مقاومة أهل رشيد للحصار وشهادة الإنجليز بذلك :

(Brigadier Stewart by now realised Rosetta could only bc taken by a regular siege (despite not fully surrounding the town) and siege lines were drawn up. By the 10th of April the first heavy guns opened fire but made little impression. Fire was returned by several enemy guns and a raid was planned to destroy one particular battery across the river.)

الترجمه تقول :

(أدرك ستيوارت أنه لايمكن أن يستولى على رشيد إلا بحصار محكم – رغم أن الحصار لم يكن محيطا بالمدينة من كل الإتجاهات – . وفى يوم العاشر من ابريل بدأت المدافع الثقيله تفتح نيرانها على المدينه، لكن كان لهذا تأثيرا متواضعاً. ورد العدو – الرشايده – بعدة طلقات من البنادق وقامت غارة لتقضى على أحد السريّات عبر نهر النيل.)

...

ستيوارت يطلب النجده من الجنرال فريزر بالإسكندريه :

" إن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً." صدق الله العظيم.

مع أن حصار رشيد إستمر 12 يوما، تعرضت فيها للقصف بالقنابل فتهدمت " الدور والأبنيه ومات كثير من الناس. وكان المحاصَرون فى رشيد يرسلون الرسائل للقاهرة يحثونهم على سرعة إرسال الإمدادات إليهم . " إلا أن العزيمه لم تضعف.

وفى الجانب الآخر ..كان الجنرال ستيوارت يرسل الرسل والرسائل إلى قيادة الحملة فى الاسكندريه .. يستنجد بقائده الجنرال فريزر .. يذكره بوعوده بأنه سيلقى العون من حلفائهم المماليك ويشكو إليه أن " الاعداء " لا يكترثون بالمصائب التي تنزل

بهم .. وأنه ينتظر منه النجدة. هيا نقرأ ما كتبه الجنرال ستيوارت قائد الحملة على رشيد والحماد إلى قائده الجنرال فريزر. يقول ستيوارت فى رسالته :

" إن ما أنبأتموني به من قرب حضور المماليك جعلني أتريث في الهجوم على رشيد، لقد ألحقنا بالمدينة أضرارا كبيرة وقد بلغ ما أطلقناه عليها من المدافع البعيدة المدى 300 قنبلة، على أنه قد تبين لنا أن الاعداء لا يكترثون بالمصائب التي تنزل بهم ، ان قواتهم لا تزيد على ما بلغنا على 300 من الفرسان، و800 من الأرناءوط وألف من الأهالي المسلحين، ولكن نظرا لسعة خطوط دفاعهم وطبيعة مواقعهم لم أر من الحكمة أن أتعجل لاقتحام المدينة، وان نجاحنا معلق على نجدة المماليك، فاذا جاءوا الينا امكننا ان نرسل الى البر الشرقي من النيل قوة تشترك في القتال، أما الآن فيستحيل علينا ذلك لان العدو متفوق علينا في قوة الفرسان، وليس لدينا مثل هذه القوة التي لها عمل كبير في الجهات المنبسطة كجهات الدلتا. وفي انتظار تلك النجدة يتبين لنا مبلغ أهمية موقعنا في الحماد فإننا نتوقع ان يهاجمنا الأعداء فيها، وسنبذل كل جهودنا لاستبقائها في يدنا ".

والحقُّ ما شَهِدت به الأعداء :

يقول ستيوارت فى خطابه :

1- " على أنه قد تبين لنا أن الاعداء لا يكترثون بالمصائب التي تنزل بهم. " (لأن فى رشيد شعب .. النضال فيه فطرة .. والجهاد فيه غريزة. تجرى فى عروقهم جينات نضالية ورثوها عن الأجداد.)

2- " وألف من الأهالي المسلحين. " (أي أن ألف رجل من الأهالى فى رشيد قد لبسوا ثياب الحرب وأصبح عددهم يفوق عدد جنود الحملة التركية (700) . كما أنهم يفوقونهم دافعاً وحماساً فهم يحاربون دفاعاً عن أرضهم وشرفهم.)

3- " إن ما أنبأتموني به من قرب حضور المماليك جعلني أتريث في الهجوم على رشيد. " (أي أن الجنرال ستيوارت كان يضع آمالاً كبيرة على نجدة المماليك له ومساعدتهم إياه. كان الإنجليز ينتظرون إذن ان ينجدهم المماليك، ولكن هؤلاء أخذوا يماطلون في الوفاء بعهدهم، ويرقبون تطور الحوادث، ثم تخلوا عن حلفائهم الإنجليز لما رأوا من حرج مركزهم إذا فعلوا ذلك، ولما حققه أهل رشيد من نصر على الحملة الأولى.)

درس من التاريخ : من هنا يتبين لنا أن الهزائم التى تحل بأوطاننا لابد وأن يكون وراءها خائن من بين صفوفنا الداخليه يتعاون مع أعداء الوطن. فلنتق الله فى أوطاننا فهي أمانة فى أعناقنا، سائلنا الله عنها يوم القيامه.

ماذا يقول الانجليز عن حملة ستيوارت على رشيد ؟

Occupation of Rosetta

"The possession of Rosetta being deemed indispensable, Brigadier-General Sir William Stewart and Colonel Oswald were despatched there with 2500 men. However, a deputy of Muhammad Ali, Umar Makram, had begun to rally the local population and bring troops from Cairo in the attempt to slow the British advance towards the capital. They fought a running battle for fifteen days against superior Turkish forces, including a thirteen-day cannonade of the town without effect.'

الترجمة تقول :

إحتلال رشيد :

"نظرا للإعتقاد بأن موقع رشيد هاما ولا غنى عنه لتأمين الحملة، فقد توجه إليها الجنرال وليام ستيوارت والكولونيل أوزوالد على رأس 2500 جندى. ومع ذلك، فقد

بدأ نائب محمد على، عمر مكرم فى حشد عامة الناس من القاهرة فى محاولة لتعطيل تقدم القوات البريطانيه نحو القاهرة. وقاموا بمعركه متواصله لمدة 15 يوما أمام القوات التركيه، بالإضافة إلى ضرب المدينه بالقنابل لمدة 12يوما دون أدنى تأثير."

...

(ملاحظاتى على هذا النص : أولا جملة " إحتلال رشيد " غير دقيقه .. فالإنجليز لم يحتلوا رشيد بل حاصروها وحاولوا إحتلالها .. لكن دون جدوى.

ثانيا يقول النص " أن نائب محمد على، هو السيد عمر مكرم" .. مع أن السيد عمر مكرم ليس نائبا للوالي. ولكن نظراً للدور الإيجابى الذى قام به السيد عمر مكرم فى جمع الكلمة وحث الناس على الجهاد .. إعتبره الإنجليز نائبا للوالي . وليته الوالي !

(السيد عمر مكرم)

عودة محمد علي إلى القاهرة قادما من الصعيد :

عاد محمد علي من الصعيد فى 12 ابريل 1807 (3 صفر 1222) فاطلع على الأنباء الواردة عن هزيمة الإنجليز فى رشيد .. فاطمأن نفسا ووجد أن الحالة أقل خطورة مما كان يتوقع. فقرر إرسال جيش من 4000 من المشاة ، و 1500 من الفرسان بقيادة نائبه " طبوز أوغلى " لقتال الإنجليز. يقول الجبرتي :
(وفى تلك الليلة أعنى ليلة الأحد وصل محمد على باشا إلى داره بالأزبكيه فى سادس ساعة من الليل.)

لكن إسمع .. الجبرتي يريد أن يضيف شيئا : أين ذهب هؤلاء الجنود وهذا العتاد الذى أعده محمد على لنجدة أهل رشيد ؟

يصف الجبرتي هذا المنظر الضاحك الباكى فيقول :

(.. وفى يوم الجمعة ركب أحمد أغا لاظ وشق بعساكره الذين كان بهم بالمنيه وتداخل فيهم الكثير من أجناسهم وغيرهم من مغاربة وأتراك بلديه ومر الجميع من وسط المدينة فى عدة وافرة ويذهب الجميع إلى بولاق يوهمون أنهم مسافرون على قدم الإستعجال بهمة ونشاط واجتهاد فإذا وصلوا إلى بولاق تفرقوا ويرجع الكثير منهم ويراهم الناس فى اليوم التانى والثالث بالمجينة. ومن تقدم منهم وسافر بالفعل ذهب فريق منهم إلى المنوفيه وفريق إلى الربية ليجمعوا فى طريقهم من أهل البلاد والقرى ماتصل إليه قدرة عسفهم من المال والمغارم والكلف وخطف البهائم ورعي المزارع وخطف النساء والبنات والصبيان وغير ذلك.)

...

هكذا .. سارت الجنود فى وسط القاهرة ، ومعهم العدة والعتاد ويراهم الناس فى لباس الحرب .. فإذا وصلوا إلى ميناء بولاق ليركبوا المراكب فى النيل ليذهبوا إلى رشيد لنجدة أهلها، إذا هم يتفرقون شيعا يسلبون وينهبون .. ويتركون أهل رشيد يواجهون العدو منفردين .. فى انتظار العون من القاهرة !!

سلمت يمينك أيها الجبرتي .. يكتب وكأنه يرسم .. كي تقرأ أنت وكأنك تشاهد.

(سيدفع بعد ذلك ثمن صراحته فى التندر بمحمد على وقواته).

الباب الحادى عشر

حصارالحماد ومقاومة الأهالى :

فى 16 أبريل، أرسل الجنرال ستيورات من رشيد مدداً من الجنود إلى الحماد – ليساند القوة الموجودة بها بقيادة الكولونيل ماكلود – لإحكام الحصار حولها. وكان هذا المدد من القوات يتكون من 250 جندي بقيادة الماجور ماكدونالد الذى عبر النهر عند مسجد أبى مندور متجها إلى الحماد جنوبياً. استطاع ماكدونالد وجنوده الوصول إلى الحماد وتمكنوا من الإستيلاء على الشاطئ الشرقي وأخذ المدفعين اللذين كان أهل الحماد قد حصلا عليهما بواسطة المعونات التى وصلتهم من جيرانهم بالبحيرة ووضعاهما الشرقي للنيل وأخذوا

(وجاءت الإمدادات لتنضم إلى أهل الحماد)

يلقون منهما القنابل على ميمنة الجيش الإنجليزي بالبر الغربي. إلا أنه قد وصل مدد إلى القوات فى الحماد، فعاد ماكدونالد إلى البر الغربي. ففى هذه الأثناء، وصلت إمدادات من القاهرة وسائر بلاد البحيرة جاءوا إلى الحماد لينضموا إلى أهلها لمقاومة الإنجليز.

يقول الجبرتي : " وذلك أنه اجتمع الجم الكبير من أهالي البحيرة وغيرها وأهالي رشيد ومن معهم من المقطوعة والعساكر وأهل دمنهور ... وأسروا من الإنجليز طائفة وقطعوا منهم كثيرا من الرءوس." وظل الإنجليز الذين يحاصرون الحماد

يتعرضون لهجمات قاسية متواصله قام بها الأهالى وجيرانهم من أهل البحيرة ورشيد، ضدهم وضد مواقعهم.

...

قوات محمد على تصل إلى رشيد والحماد :

واستمر الحصار الى أن جاء المدد الذي أرسله محمد علي باشا بقيادة طبوزاوغلي، فتغير الموقف الحربي تغيرا جوهريا.

كان هذا المدد مؤلفا من فرقتين، الأولى يقودها طبوزاوغلي نفسه بالبر الشرقي للنيل، والأخرى بقيادة حسن باشا بالبر الغربي، وكانت الفرقتان تسير كلتاهما حذاء الأخرى على الشاطئين، فلما جاءتا على مقربة من رشيد عسكرت فرقة حسن باشا بالبر الغربي تجاه الحماد، وعسكرت الأخرى في برنبال بالشاطئ الشرقي .

...

ماذا يقول الإنجليز عن هذه الإمدادات ؟

On April 20, news arrived from the advanced guard at Al Hamed of the arrival of 50-60 large vessels with reinforcements joining the besieged by Nile and General Stewart was compelled to retreat.

تقول الترجمة :

" وفى يوم 20 ابريل وصلت الأنباء بوصول 50 أو 60 سفينة ضخمة بقوات لتعزيز فرض الحصار من جهة النيل، مما اضطر الجنرال ستيوارت على التراجع."

...

وفى الحماد الكولونيل (عقيد) ماكلود يعيد تشكيل قواته :

كان عدد جنود الحملة الإنجليزية فى الحماد فى أول الأمر800 مقاتل. ثم أضيف إليهم 250 جندي بقيادة ماكدونالد كما أسلفنا.

رتب الكولونيل ماكلود مواقع جنوده، بشكل ترتكز فيه الميسرة الى النيل بقيادة الماجور وجسلند، والميمنه قرب بحيرة ادكو بقيادة الكابتن تارلتون، والقلب في قرية الحماد بقيادة الماجور مور.

وبذلك أصبح الكولونيل ماكلود مطمئنا إلى مركزه وتحصيناته.

...

ستيوارت يطلب من ماكلود الإستبسال فى الدفاع عن الحماد :

كان الجنرال ستيوارت – فى رشيد – يدرك أن خط الدفاع في الحماد لن يحتمل في بعض جهاته ضغط القوات المصرية اذا تكاثر عددها، فأرسل إلى الكولونيل ماكلود يطلب منه أن يستبسل في الدفاع عن مواقعه قدر ما يستطيع، وفي حالة تكاثر قوات الفرسان المصريين فعليه أن يرتد الى شاطئ البحيرة، فاذا لم يستطيع ذلك فليتراجع الى مواقع الجيش الإنجليزي الذي يحاصر رشيد.

"A dragoon was despatched to Lieutenant-Colonel Macleod, commanding at AlHamed, ordering him to fall back as well, but the messenger was unable to reach the British position."

تقول الترجمة :

" وأرسل فارسا على وجه السرعة إلى الكولونيل ماكلويد قائد القوات التى تحاصر الحماد ليبلغه بفك الحصار والتراجع، لكن الفارس لم يستطع الوصول إلى موقع القوات البريطانيه فى الحماد "

...

(من الطبيعى ألا يستطيع الفارس الإنجليزى الوصول إلى مقر القوات الإنجليزيه بالحماد .. وأبطال المقاومة منتشرون فى كل أنحاء المنطقة .. والأرض تحارب مع أصحابها !)

...

معركة الحماد 21 أبريل 1807

في صبيحة 20 أبريل تقدمت طلائع الجيش المصري من الفرسان (من فرقة حسن باشا) المعسكرة تجاه الحماد بالبر الغربي، نحو مواقع الإنجليز في الحماد، والتقت بكتيبة منهم وسط المزارع، فأراد هؤلاء الارتداد الى القرية، ولكنهم لم يحكموا إنسحابهم وأحاط بهم فرسان حسن باشا فقتلوا بعضهم وأسروا آخرين.

أما طبوزاوغلي، قائد الجيش المصري المعسكر بقواته فى الشاطئ الشرقي فى برنبال، فانه كان إلى ذلك الوقت مترددا في أي طريق يسلكه، هل يذهب رأسا لنجدة رشيد ليرفع الحصار عنها، أم يهاجم أولا موقع الإنجليز فى الحماد ؟
الى أن تشجع بالنصر الذى ناله فرسان حسن باشا بالبر الغربي في الصطدام الأول، فاعتزم اتباع الخطة الأخيرة، فعبر النيل ليلا
بجنوده، واقلتهم المراكب الى العدوة اليسرى، وانضموا الى فرقة حسن باشا تأهبا لمهاجمة الحماد في صبيحة الغد (21 أبريل).

...

وفي الصباح شاهد الكولونيل ماكلود قوات الجيش المصري وقد تكاثر عددها، وامتلأ السهل برجالها، فأرسل إلى الجنرال ستيوارت ينبئه الخبر ويطلب إليه أن يقره على الإنسحاب الى مواقع الجيش الإنجليزي حول رشيد، فبعث اليه ستيورات يقره على خطته. ويمده بفصيلة من الجند، ولكن الرسول لم يصل الى الحماد

وكذلك لم يجيء المدد، لأن فرسان الجيش المصري قد انسابوا في السهل وقطعوا المواصلات بين الحماد ورشيد.

***

إعتزم ماكلود الإنسحاب من خط دفاعه، ولكنه لم يحكم خطة الإنسحاب وتفرقت قواته، فتمكن فرسان الجيش المصري من الإنقضاض عليها واحدة إثر أخرى في الوقت الذي احتل فيه المشاة المصريون قرية الحماد.

تعقب الفرسان المصريون القوات الثلاث، فأحاطوا بقوة القلب وكان معها الكولونل ماكلود، وانهالوا عليها بالرصاص من كل صوب فقتل معظم رجالها ومن بينهم الكولونل ماكلود نفسه.

وأحاطوا كذلك بالميمنة فقتل قائدها تارلتون ومعظم جنودها، ولم ينج من القتل سوى خمسين وقعوا في الأسر.

اما الميسرة فقد قاومت قليلا وأحاط بها الفرسان من كل جانب، فلم ير قائدها الماجور وجلسند بدا من التسليم، فسلم هو والبقية الباقية من الإنجليز، وكان ذلك ختام المعركة.

بدأت المعركه الساعة السابعة صباحا. واستمرت ثلاث ساعات حمي فيها وطيس القتال، وانتهت بهزيمة الجيش الإنجليزي المرابط في الحماد، ولم ينج منه أحد، فمن لم يدركه القتل لم يسلم من الأسر، وبلغت خسارته نحو 416 من القتلى و400 أسير.

ماذا يقول الإنجليز عن معركة الحماد ؟

ولنقرأ ما يقوله الإنجليز أنفسهم عن هذه المعركة حتى يكون الحدث موثقاً.

"On 21 April, the advanced guard, numbering 733 and comprising a detachment of, with a picquet of dragoons, was surrounded . After a gallant resistance, the survivors, who had expended all their ammunition, became prisoners of war. General Stewart regained Alexandria with the remainder of his force, having lost over 900 men, killed, wounded and missing. Hundreds of British heads were exposed on stakes in Cairo, and the prisoners were marched between these mutilated remains. However, this time the British prisoners were well treated, and officers were given quarters in the Citadel."

تقول الترجمة :

"وفى يوم 21 ابريل، حوصرت القوة المؤلفة من 733 جندى وتشتمل على مجموعة من الفرسان. وبعد مقاومة عنيفه، أخذوا أسرى حرب بعد أن فقدوا ذخيرتهم وأسلحتهم. وعاد الجنرال ستيوارت إلى الاسكندريه بما تبقى من قواته بعد أن فقد ما يزيد على 900 فرد من جنوده، منهم من قتل أو جرح أوفقد. وعلقت مئات من رؤوس القتلى البريطانيين على أطراف العصي وأرسلت إلى القاهرة، وسار الأسرى بين هذه الحطام المشوهة. ومع ذلك، فلقد عومل الأسرى البريطانيين معاملة حسنه، ونال الضباط أماكن للاستضافة فى القلعة بالقاهرة."

•••

.. ها هو النص الإنجليزى يعترف بمدى شراسة المقاومة وحصار فرقة بأكملها .. وقتل وجرح ما يزيد عن 900 جندى. ثم ها هو النص يعترف بالمعاملة الحسنة التى لاقاها الأسرى جنودا وضباطا من الجانب المصرى فى القاهرة. ويلاحظ هنا التضارب فى عدد القتلى والجرحى، فبينما يذكر النص العربي إن عددهم 816 ، يذكر النص الإنجليزي أنهم 900. ولعل هذا التضارب ناتج عن كثرة أعداد القتلى والجرحى. وهكذا منيت القوات الإنجليزية بالحماد بهزيمة فادحة.

تأثير معركة الحماد في الموقف الحربي :

كانت معركة الحماد هزيمة ساحقة للإنجليز، فملأت نفوس المصريين عزما وفخرا وثقة، وقضت على ما قد يكون قد علق فى الأذهان من عدم إستطاعة المصريين من هزيمة القوات البريطانية .

ثم إن هذه الهزيمة قد أضعفت من هيبةٍ للجيش الإنجليزي وخاصة عندما جمع كتخدا بك أسراهم وشحنهم في المراكب الى القاهرة ليتحقق الناس من عظم النصر الذي ادركه الجيش المصري.

ثم إن هذه الهزيمة قد قضت على آمال الإنجليز فى احتلال مصر. فبدأ الجنرال فريزر فى الإسكندرية يرتب لعقد صلح مع حاكم مصر محمد علي .. صلحاً يضمن فيه خروجا آمناً من مصر !

الباب الثانى عشر

رفع الحصار عن رشيد وانسحاب القوات الإنجليزية :

فى تلك الأثناء ظل الجنرال ستيوارت مرابطا جنوبي رشيد ومعه بقية الجيش الإنجليزي.

فلما أدرك عظمة النكبة التي حلت بقواته في الحماد سارع الى رفع الحصار عن رشيد وبادر الى الإنسحاب قبل ان ينقض عليه الجيش المصري، فأتلف مدافعه التي لم يستطع حملها وتراجع الى طريق أبو قير يجر أذيال الخيبة والهزيمة.

وبالرغم من كتمانه تدابير الإنسحاب فان أهالي رشيد والبلاد المجاورة تعقبوه في انسحابه الى أن وصل الى بحيرة ادكو وجرت مناوشات على شاطئ البحيرة بينه وبين المصريين انتهت بارتداد هؤلاء ومواصلة الإنجليز الإنسحاب حتى بلغو أبو قير ومن هناك استقلوا السفن الى الاسكندرية.

...

فريزر يتحصن بالاسكندريه ويقطع سد أبى قير :

استولى اليأس على الجنرال فريزر بعد هزيمتي رشيد والحماد ورأى أنه من العبث ان يعاود القتال، فامتنع بالإسكندرية وأخذ في تحصينها.

ولكي يأمن الجنرال فريزر على نفسه قطع سد أبى قير لتطغى المياه على بحيرة مريوط وتحيط بالإسكندرية من جميع الجهات.

وهذه هي المرة الثانية التي قطع فيها الإنجليز هذا السد، وكانت المرة الأولى سنة 1801 حينما حاربوا الجنرال مينو فعندما أرادوا أن يحصروه في الإسكندرية فقطعوا هذا السد.

ولا يخفى أن قطع السد يتلف ترعة الإسكندرية فيمنع وصول مياهها إلى الثغر ويخرب بلادا كثيرة في جهات مريوط. فالإنجليز قد تسببوا في هذا الخراب مرتين.

...

الحالة السياسيه فى أوربا وأثرها على حملة فريزر :

والواقع أن انجلترا عزمت وقتئذ على العدول عن غزو مصر، ولم يكن ذلك منها تورعا ولا عدولا عن تحقيق أطماعها الإستعمارية في وادي النيل، بل لأن الحالة السياسية في أوربا كانت لا تمكنها من متابعة حملتها على مصر.

وذلك أن الصراع بين انجلترا وبين نابليون قد بلغ أشده . وكان نابليون قد بلغ أوج قوته ومجده، وقد سيطر على معظم القارة الأوروبية، وعقد مع قيصر روسيا صلح (تلسيت) الشهير. ذلك الصلح الذي وطد مركزه في أوروبا وضمن له صداقة القيصر، فاستطاع ان يتفرغ لتوجيه قواته لسحق إنجلترا، فرأت هذه أن تجمع قواها لتدافع عن جزيرتها، وآثرت ألا تغامر بجيوشها في حملات بعيدة وهي في حاجة إليها، ورأت من جهة أخرى بعدما أصاب جنودها من الهزيمة والخذلان في رشيد والحماد أن الحملة على مصر ليست مأمونة العواقب.

من أجل ذلك عدلت عن متابعة حملتها وأرسلت تستدعي جيشها من الإسكندرية، وأمرت الجنرال فريزر بالإقلاع بجنوده الى جزيرة صقلية.

ولا يعني هذا انها تخلت عن مطامعها في مصر، بل رأت ان ترجئ تحقيقها إلى أن تسنح فرصة أخرى. وكذلك ظلت تضمر الشر لمصر وترقب الفرص الى ان كشرت عن نابها أثناء إشتداد الصراع بين مصر وتركيا سنة 1839 فتدخلت في المسألة المصرية، وألبت الدول الأوروبية على مصر وحرمتها ثمرة إنتصاراتها على الأتراك. وظلت بعد ذلك تتحين الفرص لاحتلال البلاد حتى سنحت لها الفرصة سنة 1882 أثناء الثورة العرابية.

فريزر يطلب الإنسحاب من مصر :

أخذ محمد علي يعد العدة للزحف على الإسكندرية وإجلاء الإنجليز عنها بعد أن جلوا عن رشيد والحماد. ولم يكد يبدأ في التحرك إلى الإسكندريه، حتى جاءه بالقاهرة رسول من قبل الجنرال فريزر يحمل رسالة منه، فظن أن هذه الرسالة خاصة بالأسرى الإنجليز الذين في القلعة، ففضها فاذا فيها طلب الجنرال فريزر المفاوضة في الصلح على أن يجلو الجيش عن الإسكندرية.

لم يكن محمد علي يتوقع جلاء الإنجليزعن البلاد بهذه السهولة وهم الذين يتطلعون منذ سنوات عدة الى احتلالها وبسط نفوذهم عليها ويبذلون الجهود والوسائل لتحقيق أطماعهم فيها، فلم يغب عن محمد علي ما بذله الإنجليز من عهد الحملة الفرنسية لاحتلال مصر ولا مساعيهم لدى الباب العالي ودسائسهم المستمرة لتولية صنائعهم المماليك حكم البلاد وخاصة محمد بك الألفي، ولا تجريدهم تلك الحملة في هذا الغرض، كل هذا لم يفت نظر محمد علي الثاقب، ولذلك لم يكد يصدق هذه الرسالة ، وحاول كتمان ذهوله منها وابتهاجه لها، وأجاب الرسول بأنه ذاهب بجيشه الى دمنهور ، وهناك سيبعث بجوابه إلى الجنرال فريزر.

ما أسباب فشل حملة فريزر على مصر ؟

ويرجع بعض المؤرخين أسباب فشل الحملة إلى :

1- الهزيمة فى معركتي رشيد والحماد.

2- الصلح الذى تم بين محمد على والمماليك بواسطة زعماء الشعب وعلماء الأزهر بعد معارك طويلة فى الصعيد.

3- موت محمد بك الألفى أثناء مجيئ الحملة وقبل وصولها مصر.

4- غير أنه يوجد سبب شخصى آخر دفع الرشايدة إلى الإستماته فى الدفاع عن بلدهم .. ذلك أن هناك ثأرا بين أهل رشيد والإنجليز يرجع تاريخه إلى ماقبل هذه

المعركة بست سنوات مضت. فهم لاينسون أن قطعه من تاريخ بلدهم قد سلبها الإنجليز ونقلوها إلى بلادهم .. ألا وهي " حجر رشيد ". الغريب أن الانجليز رفضوا أن يسمحوا للحملة الفرنسية بمغادرة مصر إلا بعد تسليمهم هذا الحجر .. " حجر رشيد " .

وكان هذا الشرط من أهم شروط الإتفاقية التى أبرمت بين انجلترا وفرنسا وتسلمت انجلترا " حجر رشيد " وأودعته المتحف البريطانى.

وهكذا أعطى من لايملك – فرنسا – لمن لايستحق – انجلترا – أثرا تاريخيا هو ملك أهله وأصحابه الأصليين – مصر – .

فهل هناك جريمة أكبر من سرقة تاريخ وذاكرة الشعوب. ألا يستحق ذلك وحده أن نثأر من أجله ! وهاهي الفرصه قد ساقها الله إلينا .. فهل نتركها ؟

ودارت معركة الثأر. وانتصر أصحاب الحق .. بالحق ..للحق.

***

دهشة المعاصرين لانتصار الشعب على قوات الإمبراطورية :

ويعبر الجبرتي عن دهشته لانتصار الشعب فى رشيد على الإنجليز فيقول :

(ولم يخطر فى الظن حصول هذا الواقع ولا أن الرعايا والعسكر لهم قدرة على حروب الإنكليز وخصوصا شهرتهم بإتقان الحروب وقد تقدم لك أنهم هم الذين حاربوا الفرنساوية وأخرجوهم من مصر.)

وماالنصر من عند الله.

ويحاول الجبرتي أن يحدد أسباب النصر فيما يلى :

" وكذلك أهل البلاد قويت همتهم وتأهبوا للبروز والمحاربة،

1 -واشتروا الأسلحة.

2 -ونادوا على بعضهم بعضا بالجهاد.

3 -وكثر المتطوعون ونصبوا لهم بيارق وأعلاما.

4 -وجمعوا من بعضهم دراهم.

5 -وصرفوا على من انضم إليهم من الفقراء.

6 -وصدقوا في الحملة عليهم وألقوا أنفسهم في النيران ولم يبالوا بزيهم.."

***

الباب الثالث عشر

نتائج النصر

انتصر الشعب المصري فى البحيرة على الإنجليز فى عام 1807 وكان لهذا النصر أثر كبير فى تغير مجرى الأحداث فى مصر كلها، بل وفى علاقتها بالدولة العثمانية صاحبة الحل والعقد فى شئونها. فاستطاع محمد علي أن يستقل بشئون البلاد وينطلق فى تكوين إمبراطورية ضخمة شملت بلاد نجد والسودان والشام.

...

يقول الجبرتى واصفا تلقى الوالي محمد علي لهذا النصر:

(.. وفى ذلك اليوم حضر شخصان من السعاة وأخبرا بالنصر على الإنكليز وهزيمتهم ... فخلع الباشا على الساعيين جوختين وفى أثر ذلك وصل أيضا شخصان من الأتراك بمكاتبات بتحقيق ذلك الخبر وبالغا فى الأخبار وأن الإنكليز إنجلوا عن متاريس رشيد وأبى منضور والحماد ولم تزل المقاتلون من أهل القرى خلفهم إلى أن توسطوا البرية وغنموا جبخاناتهم وأسلحتهم ومدافعهم ومهراسين عظيمين وذكرا أنه واصل خلفهم أسرى ورؤوس قتلى كثيرة فى عدة مراكب. "

...

أمة واحدة : يورد الجبرتي فى كتابه الأشهر " عجائب الآثار فى التراجم والأخبار" أن من بين المحاربين رجلين من مكة المكرمة :

" ... وأنه وصل معهما من جملة المتطوعين رجلان من أهل مكة التجار المقيمين بمصر كانا فى الواقعه بنحو مائة من البدو والمغاربة وغيرهم ينفقان عليهم ويحرضانهم على القتال ويعينان المقاتلين ويقاتلان بأنفسهما وبذلا جهدهما

فى ذلك وأنهما بعد هزم الإنكليز وسلبهم فرّقا ماغنماه وما بقي معهما من الأشياء على من خرج خلف الإنكليز.)

هذان الرجلان من مكة إشتركا فى المعركة بمائة رجل ينفقان عليهم ويحرضانهم على القتال ويعينان المقاتلين ويقاتلان بأنفسهما وبذلا جهدهما فى ذلك .. وأنهما فرّقا ما غنماه بعد المعركة على من خرج خلف الإنجليز ! لم تمنعهما حدودٌ مصطنعة بين الدول كالتى نراها اليوم .. إذا تعرضت أرض من بلاد الإسلام لكارثه .. تداعى لها سائر المسلمين من كل حدبٍ وصوب.

الله الله يا أمة الإسلام .. الجهاد فيك سنام.

...

قوات محمد على تزحف على الاسكندريه :

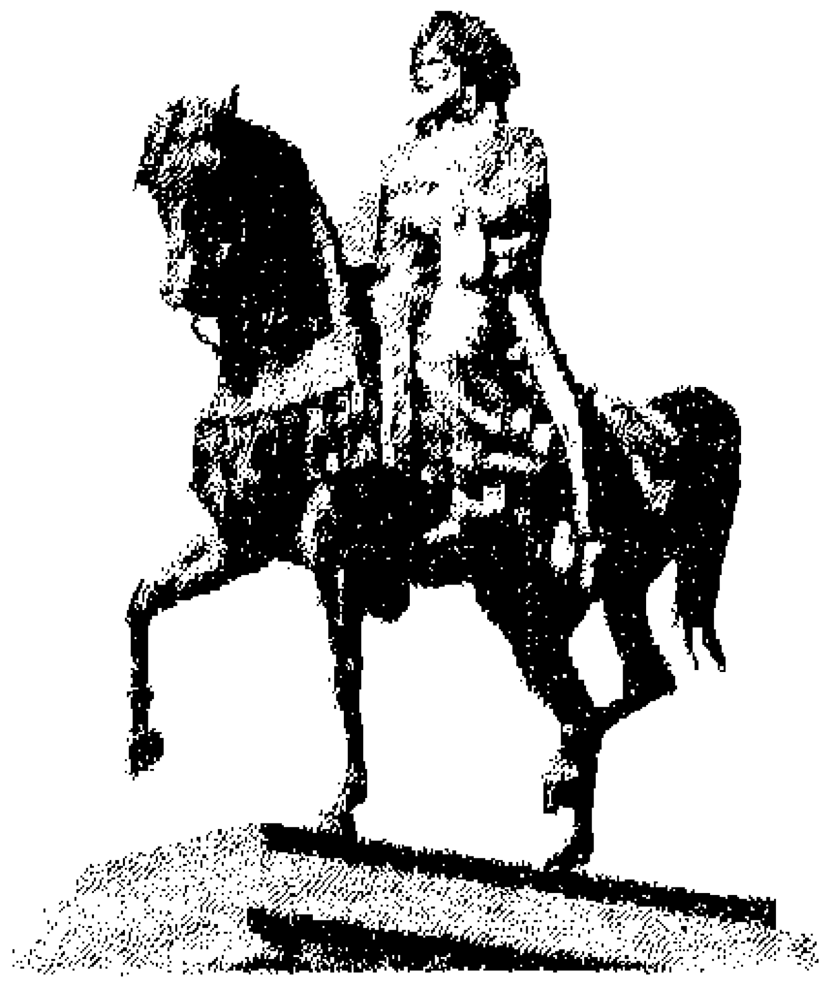

إعتزم محمد علي السفر الى دمنهور وسار بجيشه من معسكره في إمبابة إلى الرحمانية، ومنها الى دمنهور فى يوم 12 أغسطس سنة 1807 (7 جمادى الثانية 1222). وكان جيشه مؤلفا من ثلاثة آلاف من المشاة وألف من الفرسان مجهزين بمدفعية قوية. ولما بلغ دمنهور التقى بالجنرال شربوك الإنجليزي الذي فوضه الجنرال فريزر في الاتفاق على الصلح، وهناك أبرم الطرفان المعاهدة، وهي تقضي بجلاء الجنود الإنجليز عن الإسكندرية في مقابل إسترجاعهم أسراهم وجرحاهم. فبادر محمد علي بإنفاذ أمره الى القاهرة ليحمل الأسرى الإنجليز على الفور.

معاهدة دمنهور :

وهكذا كان من نتائج بطولات أهالي رشيد والبحيرة أن أبرمت معاهدة الصلح بين الإنجليز ومحمد علي باشا في 14 سبتمبر، التى سُميت بمعاهدة دمنهور والتى تم بمقتضاها جلاء الإنجليز عن مصر مقابل استرداد أسراهم وجرحاهم وتم رحيلهم في 19 سبتمبر 1807.

يقول الجبرتى فى ذلك :

(واستهل شهر رجب بيوم جمعه سنة 1222 فى رابعه وردت مكاتبات من الباشا بوقوع الصلح بينه وبين الإنكليز واتفقوا على خروجهم من الإسكندريه وخلوها ونزولهم منها وأرسل يطلب الأسرى من الإنكليز.)

...

نص معاهدة دمنهور 14 سبتمبر/ 11 رجب سنة 1222 :

" بما أن الجنرال فريز fraser قائد القوات البرية لصاحب الجلالة البريطانية والكبتن هلويل Hollowel قائد الأسطول الإنجليزي المرابط تجاه السواحل المصرية قد خولا الجنرال شربروك Scherbrook والكبتن فيلوز Fellowes من ضباط البحرية الإنجليزية سلطة إبرام الاتفاق الخاص بالجلاء عن الإسكندرية فقد اتفق كل من صاحب العظمة محمد على باشا والي مصر ، والجنرال شربروك والكبتن فيلوز المذكورين على الشروط الآتية" :

المادة 1

توقف فورا الأعمال العدائية من الجانبين، وتجلو القوات البريطانية عن الإسكندرية فى مدى عشرة أيام من التوقيع على هذه المعاهدة وتنسحب من جميع القلاع والاستحكامات والمنشآت، وتتركها بالحالة التى هى عليها الآن ويسلم صاحب العظمة محمد علي باشا للقواد البريطانيين صهره مصطفى بك وعمه اسحق بك ومهر داره (حامل الختم) سليمان أفندي رهائن يبقون على

ظهر إحدى السفن الحربية الإنجليزية إلى أن يتم تنفيذ هذه المعاهدة.

المادة 2

جميع أسرى الحرب الإنجليز وكذلك الأفراد الذين التحقوا بخدمتهم من الأرقاء يطلق سراحهم ويرسلون بطريق النيل إلى بوغاز رشيد حيث يبحرون على سفينة إنجليزية.

المادة 3

يصدر عفو عام عن سكان الإسكندرية أو غيرهم من الآهلين لما وقع منهم فى الماضى ويؤمنون على أرواحهم وأملاكهم لكونهم اضطروا بحكم الظروف إلى اتخاذ الطريق الذى سلكوه.

المادة 4

بما أن أمين بك الألفي قد بارح الإسكندرية أثناء الاحتلال الإنجليزي فإن صاحب العظمة محمد علي باشا يعد بأنه في حالة عودة أمين بك المذكور إلى الميناء ألا ينأله سوء ويعطى أمانا له ولحاشيته بشرط أن لا يتجاوز عددهم اثني عشر شخصًا.

المادة 5

نظرًا لتفرق الأرقاء الملحقين بخدمة الجيش البريطانى ووجود بعضهم على مسافات بعيدة فيبقى مندوب إنجليزي فى الإسكندرية بعد الجلاء عنها ليتسلمهم كلما ظهروا، ولهذا المندوب أن يحصل من صاحب العظمة على كل حماية ومساعدة لأداء مهمته فى إحضار هؤلاء الأفراد، ويسمح له بأن يرسل كل من يوجد منهم إلى أية سفينة إنجليزية تكون راسية فى الميناء أو يرسلهم إلى صقلية أو مالطة بأية طريقة أخرى تتيسر له.

" حررت هذه المعاهدة فى معسكر صاحب العظمة محمد علي باشا والى مصر بالقرب من دمنهور يوم 14 سبتمبر 1807 الموافق 11 رجب سنة 1222 " .

" إمضاءات : محمد على باشا : شريروك، فيلوز" .

...

رحيل الحملة عن الاسكندرية :

وأخذ الجنرال فريزر يستعد لإجراءات الجلاء وتسلم الأسرى. وفي اليوم التاسع عشر من سبتمبر، تم جلاء الإنجليز عن المدينة، وتسلم الإسكندرية طبوز أوغلي نيابة عن محمد علي ثم أقلعت السفينة البريطانية ذاهبة بجنود الحملة الى صقلية.

قال الجبرتي: " وفي يوم الاربعاء 13 رجب سنة 1222 وصل المبشرون بنزول الانكليز من ثغر الاسكندرية الى المراكب ودخل اليها كتخدا بك (طبوزأوغلي) ونزل بدار الشيخ المسيري".

وبذلك طويت صحيفة الاعتداء البريطاني الأول على مصر.

...

محمد على يتجه إلى رشيد ويسافر منها إلى القاهرة :

ظل محمد علي في الإسكندرية الى أن غادرها فريزر. وسار برا الى رشيد يصحبه حسن باشا، ومن هناك انحدر في النيل إلى القاهرة، وفي طريقه اليها انقلب به مركبه أمام (وردان) فاجتاز النهر سباحة وواصل سفره راكبا جواده، فكبا به الجواد على غير عادته وسقط على الارض فتطيرت حاشية الباشا من الحادثتين، ثم وصل محمد علي الى القاهرة وبلغها في شهر أكتوبر سنة 1807. قال الجبرتي في هذا الصدد: " في ثالث شعبان سنة 1222 (6 أكتوبر سنة 1807) وصل الباشا الى ساحل بولاق، فضربوا لقدومه مدافع من القلعة، وعملوا له شنكا ثلاثة أيام، واتفق أن الباشا في حال رجوعه من الاسكندرية نزل في سفينة صغيرة وصحبته حسن باشا طاهر وسليمان أغا الوكيل سابقا فانقلبت بهم وأشرف ثلاثتهم على الغرق وتعلق بعضهم بحرف السفينة فلحقتهم مركب أخرى أنقذتهم من الغرق وطلعوا سالمين وكان ذلك عند زفيته".

السلطان العثمانى يعبر عن ابتهاجه وتقديره لمحمد على

ولما وصلت أنباء الجلاء عن الاسكندرية الى الآستانة ابتهج السلطان العثماني إبتهاجا عظيما لما كان بين تركيا وإنجلترا من العداء في ذلك الحين، فأرسل رسولا الى محمد علي يظهر له ابتهاجه بالنصر ويهدي اليه سيفا ثمينا وخلعة، وكذلك أنعم على ابراهيم بك وطوسون بك وحسن باشا وطاهر باشا والسيد عمر مكرم وعابدين بك وعمر بك وصالح قوش بالرتب والخلع الثمينة.

وأعادت الحكومة التركية ابراهيم بك -إبن محمد علي - الى مصر وكان بالآستانة رهينة ليؤدي محمد علي الأربعة آلاف كيس التي التزم بأدائها فأطلقت الحكومة سراحه إعرابا عن إنتصار الجيش المصري. وضُمت الإسكندرية إلى محمد على بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان وحاكمها يعين من قبله.

وكانت الإسكندرية خلال السنوات السبع الماضية في عزلة عن القطر المصري بعيدة عن نفوذ محمد علي، ذلك أن الباب العالي كان يعتبرها تابعة مباشرة لحكمه ولم يكن للولاة ظل من النفوذ فيها، فبقيت على هذه الحال الى أن جلا الإنجليز عن البلاد وسار محمد علي إلى الإسكندرية ، فكان هذا الجلاء فرصة لبسط نفوذه عليها ورجوعها إلى حاكم مصر. ودخلها محمد علي بعد جلاء الإنجليز وكان يوما مشهودا أطلقت فيه مدافع القلاع والأبراج إبتهاجا بانضمام الاسكندرية إلى الوطن.

...

وصفوة القول أن أخفاق الحملة البريطانية سنة 1807 وهزائم الإنجليز في رشيد والحماد هي صفحات مجد وفخار لمصر والمصريين.

الباب الرابع عشر :

المصير

قبل أن أختم هذا الفصل فى كتاب تاريخ معركة رشيد .. ترقرقت فى عيني دمعة فرح لانتصارات أجدادنا فى رشيد .. لكنها ما لبثت أن تحولت إلى دمعة حزن.

فلقد زالت الغمة .. وخرج الإنجليز من مصر مدحورين .. وعم الفرح الوادى كله بانتصار رشيد .. إلا أن رشيد نفسها لم تشعر بفرحة هذا النصر ! وبدا فى عينيها دموع الإنكسار .. لا الإنتصار !

لم تكن دموع فرح بهيَ. بل دموع حزن عصيَ.

فكما أن للفرح دموع ! فللحزن دموع.

...

مصير رشيد :

يقول الأستاذ يوسف زيدان فى موقعه للتراث والمخطوطات :

(كثيرا مايخالف الواقع الفعلي، الأحكام النظرية والقواعد المثالية. ومن الأمثلة الفاضحة لذلك، ما جرى مع مدينة رشيد ! فمن جملة الأحكام النظرية والقواعد المثالية، أنه : من جدّ وجذ، ومن زرع حصد ومع ذلك، جدّت رشيد ولم تجد شيئا، وزرعت فى أرض التاريخ الحديث بطولة ومجدا .. ثم حصدت الإهمال والتهميش المتعمد.)

...

وهذا بالضبط ما حدث لرشيد بعد النصر !

يقول الجبرتي :

(لما انتهت الحرب أحاطت العساكر ورؤساؤهم برشيد وضربوا على أهلها الضرائب وطلبوا منها الأموال والكلف الشاقة وأخذوا ماوجدوه بها من الأرز للعليق فخرج

كبيرها السيد حسن كريت إلى حسن باشا وكتخذا بك وتكلم معهما وشنع عليهما وقال أما كفانا ماوقع لنا من الحروب وهدم الدور وكلف العسكر ومساعدتهم ومحاربتنا معهم وما قاسيناه من التعب والسهر وإنفاق المال ونجازى منكم بعدها بهذه الأفاعيل فدعونا نخرج بأولادنا وعيالنا ولانأخذ معنا شيئا ونترك لكم البلدة افعلوا بها ما شئتم فلاطفوه فى الجواب وأظهروا له إليهتمام - أي إهتمامهم - بالمناداة والمنع وكتب المذكور- السيد حسن كريت - أيضا مكاتبات بمعنى ذلك وأرسلها إلى البلدة والسيد عمر بمصر فكتبوا فرماناً وأرسلوه بالكف والمنع وهيهات . وحتى يأتى الترياق من العراق يموت الملسوع ومن يقرأ ومن يسمع!) . ولكن .. هيهات . وحتى يأتى الترياق من العراق يموت الملسوع ومن يقرأ ومن يسمع!

نعم .. من يقرأ تاريخ هذا الشعب الصابر! ومن يسمع أنين المظلومين من أبنائه ...

كذلك .. كافأها محمد على بأن حرص على أن يفقدها مكانتها التجارية وذلك بتحويل خط التجارة من ميناء رشيد إلى ميناء الاسكندرية .. فأمر بحفر ترعة المحمودية التى ستساعد فى نقل التجارة الآتية لمصر

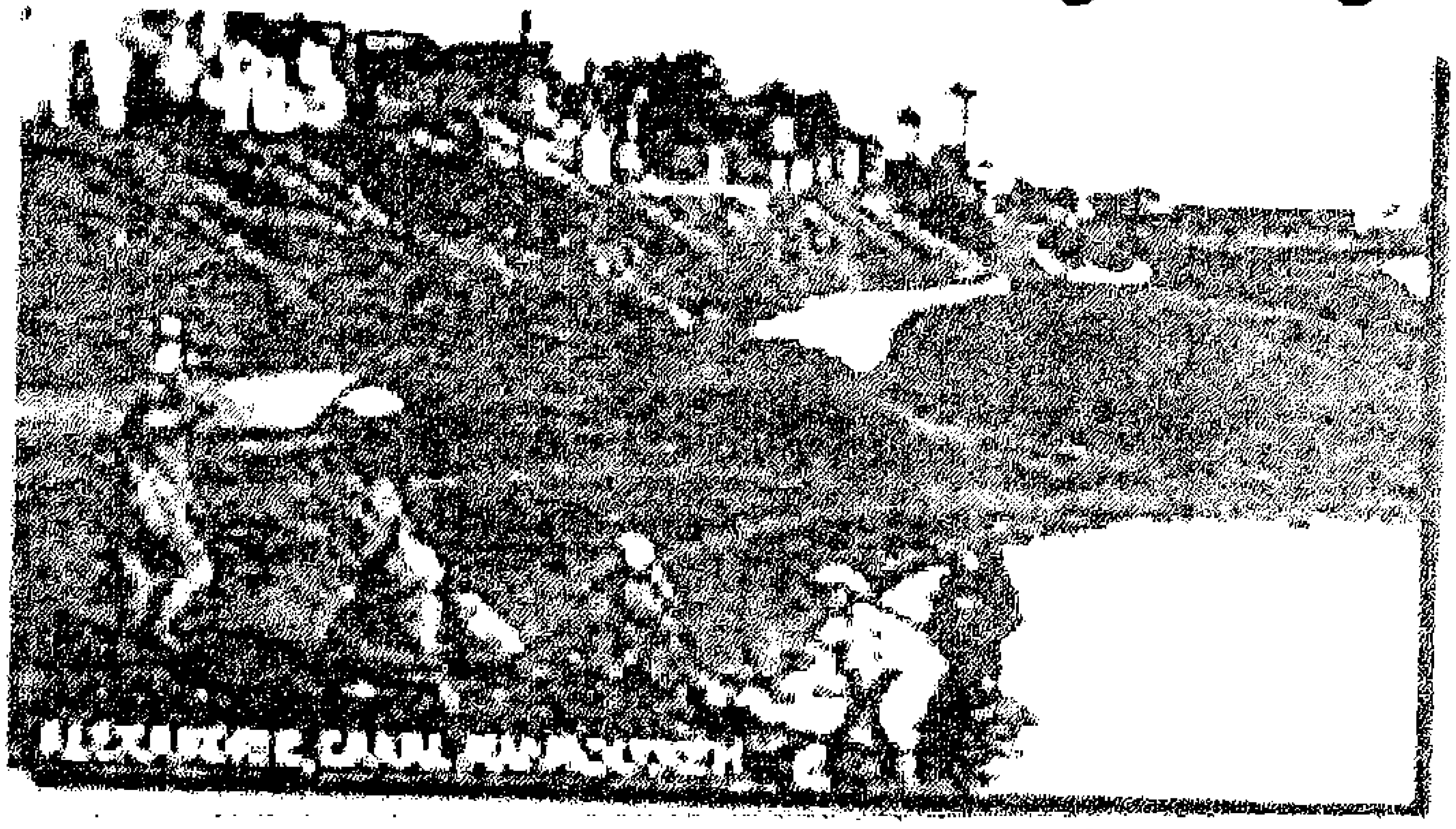

(أثناء حفر ترعة المحمودية)

أو الخارجة منها إلى ميناء الاسكندرية .. فشقت الترعة جنوب مدينة رشيد على بعد حوالى 40 كيلو متر، وذلك لربط ميناء الاسكندرية بفرع رشيد ونقل التجارة

مباشرة من الاسكندرية إلى باقى مدن مصر عن طريق هذه الترعة دون المرور برشيد.

مما جعل رشيد فى عزلة وأصبح ميناؤها التجاري الذى كان يعج بالحركة والبركة تعصف فيه الرياح ويلفه النسيان !

...

وفى عام 1827 فى عهد محمد علي باشا أيضا أنشئت فى رشيد مدرسة للطب البيطري .. تعلم كيف يعالجون المواشي ... لكنها فى عام 1831 نقلت الى جوار مدرسة الطب بأبى زعبل واقيم بجوارها مستشفى يسع 110 حصانا كما كان بها صيدلية وصالة للتشريح واقسام لإعاشة الطلاب وهيئة التدريس.

لماذا نقلت هذه المدرسة من رشيد ؟ هل لأن رشيد لا تستطيع أن تعيش فيها المواشى ؟

...

ويدأ أبطال الأمس القريب – الرشايدة – يتركون ديارهم وأموالهم .. وأصبحوا مغتربين فى وطنهم !

يقول الجبرتى يصف حال بعض أهل رشيد .. وقد ضاقت عليهم بلدتهم فرحلوا عنها مرغمين !

(وفيه حضر الكثير من أهل رشيد بحريمهم وأولادهم ورحلوا عنها إلى مصر.) !!!

لاتعليق !

مصير الشيخ حسن كريت :

ولم يكن مصير الشيخ حسن كريت بأحسن حالاً من مصير بلدته رشيد.

فبعد انتهاء المعركة، عاد محمد على إلى القلعة بالقاهرة.

(فلما عاد إلى القاهرة واستقر بالقلعة أقام وليمة لكبار رجال الدولة ودعا إليها السيد حسن كريت بطل معارك رشيد والحماد ورحب به أشد الترحيب!
وبعد أن تناول المدعوون مالذ وطاب خرج حسن كريت محمولا على الأعناق وشيعت جنازته بصفة رسمية ووري جثمانه الطاهر قبرا غير معروف إلى يومنا هذا.)
ندعوا الله له – لقاء ما بذل من كفاح لبلده رشيد ولأهله بها- أن يتقبله فى الشهداء وأن نلتقى به فى الجنه .. فأنا أحبه لأنه أحب رشيد.

•••

رأي الأستاذ يوسف زيدان فى معركة رشيد :

(وقفت مدينة رشيد ببسالة أمام حملة فريزر على مصر، وفى يوم 31 مارس 1807 دخل الجيش الإنجليزى مدينة رشيد، وغاص فى شوارعها الملتويه ودروبها الضيقه. وفى لحظه مباغته، خرج عليهم أهل رشيد وحاميتها، من نوافذ المنازل وأسطح البنايات، فبددوا شمل الإنجليز وأوسعوهم ضربا وتقتيلا .. وانتصرت رشيد .. وانسحب الغازى الغشوم. لكن : عاد الإنجليز فنصبوا المدافع على تل أبى مندور المجاور للمدينة، وتوالى قصفهم الوابلي على المدينة .. ورحل الإنجليز .. وبعدها، حوّل محمد على طريق التجارة من رشيد إلى الإسكندرية، فسقطت المدينة فى بئرٍ من النسيان، ظل يعمق مع توالى الحكام والحكومات .. حتى يومنا هذا.)

•••

تمت والحمد لله حكايتى عن نضال رشيد ضد حملة فريزر أوائل القرن التاسع عشر. لكن نضال الشعب المصري من أجل كرامته وحريته لن يتوقف ضد الطامعين فى مصر .. وما أكثرهم.

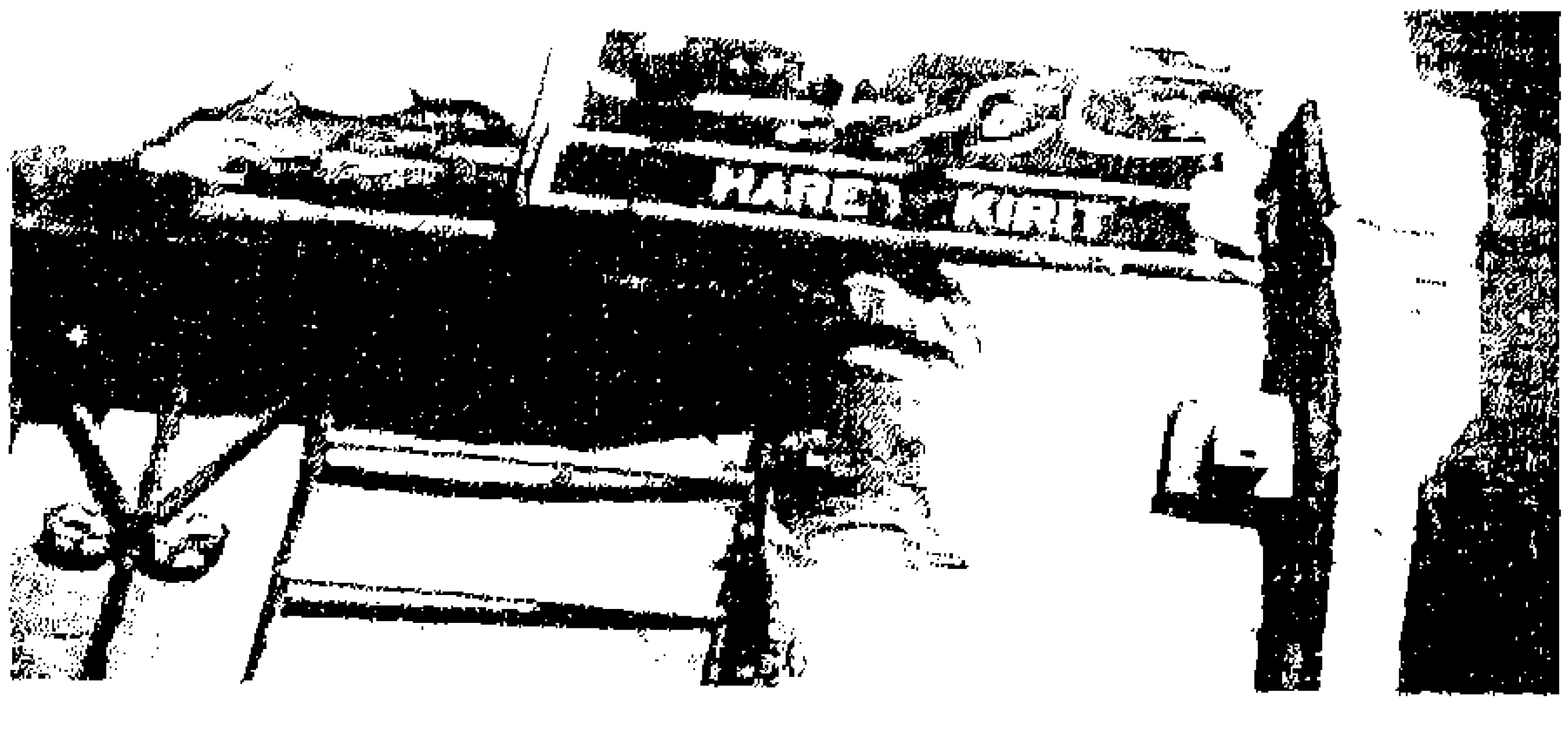

(حارة كريت فى رشيد .. فى بلده التى حارب من أجلها .. اسمه مكتوب على حارة ضيقه .. وليس شارع رئيسى أو ميدان !)

•••

الخاتمه

وهكذا انتصرت رشيد .. رغم تراكمات الضعف التى أحاطت بها : السلطان العثمانى الذى كانت مصر إحدى ولايات دولته .. ضعيف.

محمد على باشا والى مصر يومئذ .. يحارب المماليك الذين كانوا ينافسونه على الحكم.

الحامية التركيه فى رشيد لا يبلغ عدد أفرادها السبعمائة جندى والأسلحة هزيلة بدائية بالنسبة لأسلحة الحملة.

والعدو الذى يحاربونه – إنجلترا – قوي .. بل أقوى دولة فى ذلك الزمان .. فلقد هزم نابليون كل دول أوربا .. ماعدا إنجلترا لمنعتها وقوة أسطولها.

ومع هذا .. انتصرت مصر .. فى رشيد .. على إنجلترا !

ما سر هذا الإعجاز فى مصر ؟ فى أحلك الظروف وأصعب اللحظات التاريخيه تجد هذا البلد .. مصر .. تكسر القواعد وتحطم النواميس.

أثناء الحروب الصليبيه والأوربيون يعيثون فسادا فى المشرق العربى يأتى صلاح الدين من بلاد الأكراد شمال العراق ليبدأ حملاته المظفرة ضد الصليبيين من مصر .. وينتصر فى موقعة حطين (وقعت في يوم السبت 25 ربيع الثاني 583 هـ ويحرر بيت المقدس ويستعيد المسجد الأقصى. الموافق 4 يوليو 1187 م)

وعندما إجتاحت موجات المغول دول العالم الإسلامى .. تقتل وتخرب (عندما قبض هولاكو على الخليفة العباسي المستعصم وقيل له لو أنه قتله وأريقت دماءه على الأرض فسيحدث كوارث عظيمة فأمر هولاكو بأن يوضع الخليفة فى جلد بقر وأن يضرب بداخله حتى يموت) .. تقوم مصر وتهزم المغول فى عين جالوت (وقعت

في 25 رمضان 658 هـ / 3 سبتمبر 1260 م) ، شر هزيمة .. هزيمه لم تقم لهم بعدها قائمة.

وهكذا .. كما رأينا فى رشيد. كل الأسباب كانت تؤدى إلى أن فريزر سوف ينتصر ا نتيجة قاطعة .. الإحتلال والإستسلام. لكن لم يحدث هذا .. وانتصرت مصر.

مخطئ من يتصور أن فرعوناً أو ملكاً أو رئيساً يستطيع أن يتحكم فى مصر وشعبها. مصر لايحكمها إلا الله. صنعها على عينه وتكفل برعايتها. لايرضى لها ولأبنائها الصابرين الضيم والذل والمهانة. غيورٌ عليها : " إذهب إلى فرعون إنه طغى " . حتى وإن لم يدافع عنها أبناءها بسبب ظروف الجور والبطش الشديد .. يبعث لها أنبياء يدافعون عنها.

أي سر فيك يا أم الدنيا ؟ ما هذا الطلسم الذى يختبئ فى أهراماتك ؟ ما سرك الذى لايبوح به أبا الهول ؟ ما هذه التركيبة التى أذابها النيل فى عذب مائه وسقى بها أرضك الطيبة ؟ ما يفعل البحر فى شمالك ؟ أيغسل عتبات شواطئك بالمياه المالحة .. ليخزى عنك العين ويبطل فيك السحر والحسد ؟

تَفيضِين حكْمةً وتقدِّرين لكل قدْرٍ قدْرا. ؟

أزلت حاجز بارليف المنيع الذى تفنن اليهود فى تقويته ومنعتة .. ببعض مائك.. تدافعت المياه نحوه فتلاشى وأصبح كومة من تراب.

وأسقطت الطاغوت والفساد .. ببعض أبنائك.. إعتصموا فى الميدان فزهق الباطلُ وأصبح سرابا.

لعل هذا يفسر ما حدث من انتصارٍ فى رشيد. فرشيد بنت مصر الطاهرة .. والبنت سر أمها. شعبُ مصر لا يقبل الضَّيم .. وإن عُرِف عنه الصبر. ولا يقبل الذل .. وإن عضّه الفقر.

***

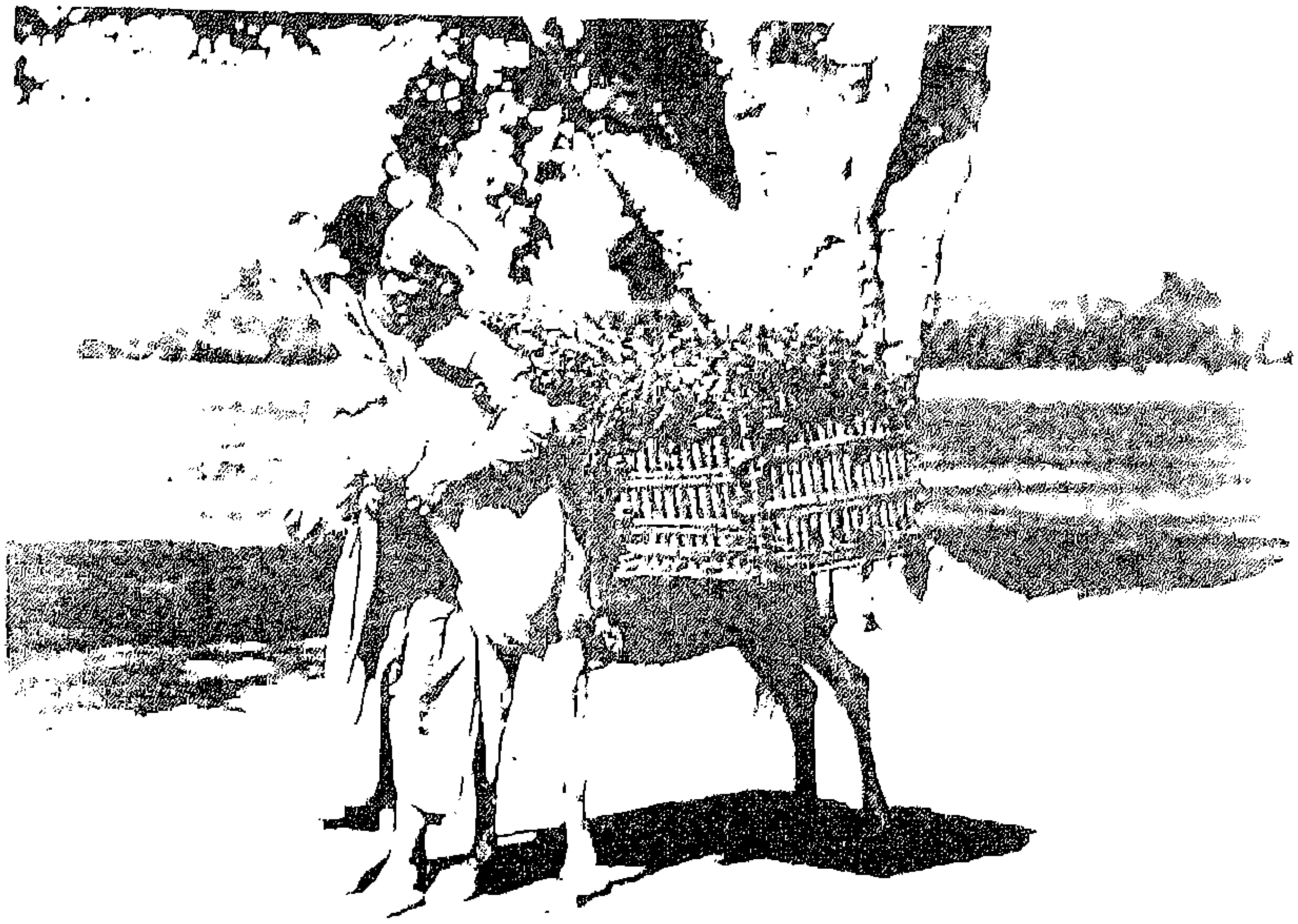

(من سلب هذا الراضى حقه فى حياةٍ كريمة ؟.. لم يجد أحنُّ عليه من الحيوان والأرض .. فوهبهما حياته .. لم يركب الحمار .. إشفاقاً عليه. ومشى حافيا على الأرض تنزيهاً لها من أن يطأها بنعل حذاء !)

***

فلمصر طبيعة خاصة ناشئة من تاريخها الطويل وحضارتها العريقة وطبيعة الحياة فيها، فهي بلد زراعى .. وسط صحراء. فاكتسب سكانها صبر المزارع .. وصلابة وخشونة أهل البادية.

كان النيل يتهددهم بفيضانه وفورانه واكتساحه لأرضهم .. فروّضوه وهذّبوه كما تُروّض الفرس الجامحه. فالمصريون إذن أهل صلابة وجلد وحكمة فى معالجة الأمور. وقد استطاع الحجاج بن يوسف الثقفى أن يرصد نفسية المصريين ببراعة فائقة حين قال فى هذا النص :

" قال الحجاج بن يوسف الثقفى عن المصريين فى وصيته لطارق بن عمرو حين صنّف العرب فقال عن المصريين: لو ولاك أمير المؤمنين أمر مصر، فعليك بالعدل، فهم قتلة الظلمة، وهادمى الأمم، وما أتى عليهم قادم بخير إلا التقموه، كما تلتقم الأم رضيعها، وما أتى عليهم قادم بشر، إلا أكلوه كما تأكل النار أجف الحطب. وهم أهل قوة وصبر وجلد وحمل، و لايغرنك صبرهم، ولا تستضعف قوتهم، فهم إن قاموا لنصرة رجل ما تركوه إلا والتاج على رأسه، وإن قاموا على رجل ما تركوه إلا وقد قطعوا رأسه، فاتقى غضبهم، ولا تشعل نارا، لا يطفئها إلا خالقهم. فانتصر بهم، فهم خير أجناد الأرض. وأتقى فيهم ثلاثا :

1- نساءهم فلا تقربهم بسوء وإلا أكلوك كما تأكل الأسود فرائسها.

2- أرضهم وإلا حاربتك صخور جبالهم.

3- دينهم وإلا أحرقوا عليك دنياك.

وهم صخرة فى جبل كبرياء الله، تتحطم عليها أحلام أعدائهم وأعدا الله."

الإهـداء

إلى كل المناضلين من أبناء مصر .. إلى الذين إختصهم رسول الله بقوله .. " هم فى رباطٍ إلى يوم القيامة ". فمصر جمالها فريد .. وخيرها وفير .. لذا توجب على المناضلين من أبنائها أن يكونوا دائما فى رباطٍ للذود عنها. فالطامعون فى خيرها كُثُر، والجهلاء بقدْرها كُثُر.

والطامعون قد يكونون دخلاء عليها أو من أهلها، والجهلاء بقدْرها قد يعوقون مسيرتها التى أرادها الله لها. وإلا فما بال أصحاب السفينة الذين أرادوا أن يصنعوا فتحة فى أسفلها ليجلبوا الماء ! وهم بذلك طبعا لا يقصدون إغراق السفينة، لكنهم فى هذه الحالة سيغرقون جميعا .. فهو الجهل بمقاصد الأشياء.

هنا يجب على المناضلين من أبناء هذا الوطن المضيّ فيما أمرهم الله به من إعمار الأرض وإرجاع الحق لأهله إذا اختل الميزان.

وقد تجد جماعة فى الوطن أن مصلحتها الضيقة تتحقق مع حاكم من الحكام أو رئيس من الرؤساء .. غير مبالين بمصلحة الجموع من الشعب .. فهم ينظرون فقط لما فى أيديهم، أولئك أثقلتهم الثروة .. وأتخمتهم النعمة .. وأعماهم السلطان. هؤلاء فقدوا المشاعر الإنسانية والإحساس بإخوانهم المحرومين. يخشون النضال من أجل الحق .. فلم يتعودوا على النضال ! ويكرهون التغيير طالما أن الموجود يغنيهم ويرضى جشعهم .. ينطبق عليهم مثال قوله تعالى " أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ " الزخرف : 18.

ويكفى أن ينوب فى النضال عن هذه الأمة المناضلون المخلصون من أبنائها.

وأظن أنهم الآن فى ميدان التحرير .. ذهبوا إلى " مُجمّع التحرير " **لإشهار عقد الملكية** الذى ضاع من أجدادهم وآبائهم منذ عقود .. فذهبوا للمجمع لاستخراج بدل فاقد ثم الإشهار. لتعود مصر إلى أبنائها .. مِلْكِيةً خاصة. الله أكبر والعزة لمصر.

محمود

الاسكندريه فى 2 ربيع الأول 1432 هـ الوافق 25 ديسمبر 2012

0123769622 & 03/ 5850035 & 045/ 2924491

المراجع

1 -«محمد علي وعصره» الذي أصدرته دار الكتب والوثائق القومية لمجموعة من أساتذة التاريخ «د. أحمد زكريا الشلق - ود. جمال زكريا قاسم ود. خالد فهمي ود. عبدالواحد النبوي ود. علي بركات ود. يونان لبيب رزق» .

2 -الرافعي، عبد الرحمن (2009). عصر محمد علي. القاهرة، مصر: دار المعارف.

3-الأستاذ يوسف زيدان فى موقعه للتراث والمخطوطات .

4- موقع المحتوى العربى .

5- عبد الرحمن الجبرتي " عجائب الأخبار فى التراجم والآثار.

6- موسوعة العمارة والفنون الإسلاميه. الدكتور محمود أحمد درويش.

7- تاريخ دمنهور للأستاذ محمد سعد حميده.

8 - تاريخ الحركة الوطنية وتطور نظام الحكم. عبد الرحمن الرافعي

9- موقع المجموعه الحره لخلق وجمع المحتوى العربى.

*Oxford Dictionary.

فهرس

مقدمة 3
تمهيد 9

الباب الأول

مسرح الأحداث العالمي فى تلك الفترة 12
أ- الدولة العثمانية
ب – انجلترا وفرنسا

الباب الثانى

ج – مصر 17
الشعب ينصّب محمد علي واليا على مصر
من هو محمد علي

الباب الثالث

رشـــــيد 22
رشيد زمن حملة فريزر
ثغر رشيد
لماذا فكر فريزر فى احتلال رشيد ؟
خصوصية أهل رشيد
تاريخ رشيد الحربي على مر عصور الحكم الإسلامي
ماذا عن سكان رشيد زمن الحملة
الموقع الإستراتيجي لرشيد
ما هي الهبات التى حباها الله لرشيد

الباب الرابع (حملة فريزر)

من هو الجنرال فريزر ؟ 42
أسباب حملة فريزر على مصر
الأهداف المراد تحقيقها من الحملة
وصول الحملة إلى شواطئ الإسكندرية
الإتصال سراً بين الحملة وأمين أغا
الأهالى يرفضون مدداً من عسكر الباشا خوفا من الفساد والإفساد
الحاميات العسكرية التركية تفر من مقاومة الإنجليز
موقف المماليك
محمد بك الألفي
تقارير من القنصل الانجليزى فى رشيد

الباب الخامس

ماذا يجرى فى رشيد 54
لقاء خاص بين محافظ رشيد والقنصل الفرنسي
إجتماع المحافظ وكريت مع أعيان الأهالى وشيوخ الحرف

فهرس

لا لإستسلام .. نعم للنضال
الطريق إلى رشيد
رشيد فى الربيع
على تلال أبى مندور
الوردة الصغيرة
إستخبارات
الباب السادس
الحرب خدعه 66
خطة الدفاع عن المدينة
الدخول إلى رشيد
هدوء مريب
الباب السابع
سير المعركة 78
حصاد المعركة
عندما تصدق النوايا بين الشعب والحاكم
ماذا قال الجبرتى عن معركة رشيد
وماذا قال الإنجليز عن المعركة
الأجانب فى رشيد
رشيد بعد المعركة
الباب الثامن
الرشايدة يصلون القاهرة 89
ماذا حدث للمنتصرين فى القاهرة ؟
النظره للرشيدي بعد النصر
فى رشيد .. يعدون الموكب الرسمى للقاهرة
معاملة الأسرى والجرحى فى القاهرة
النتائج التى ترتبت على انتصار رشيد
اسباب هذا النصر فى رأي الجبرتى
الباب التاسع
فريزر يجهز حملة إنتقامية ضد رشيد 95
رسائل من رشيد إلى القاهرة
دور العلماء فى حث الناس على الجهاد
موقف كتخدا بك من المعركة
أثر معركة رشيد فى بث روح النضال بالقاهرة
محمد علي بالصعيد

فهرس

الباب العاشر
حملة ستيوارت على رشيد والحماد 101
إرسال كتيبة إلى الحماد وحصارها
لماذا الحماد ؟
حصار رشيد ودكها بالمدافع
الحصار والقصف بالمدافع يستمر إثني عشر يوما
مكاتبات من رشيد إلى القاهرة تطلب سرعة الإمداد
مقاومة أهل رشيد للحصار وشهادة الإنجليز بذلك
ستيوارت يطلب النجدة من الجنرال فريزر بالاسكندرية
الحق ما شهدت به الأعداء
ماذا يقول الإنجليز عن حملة ستيوارت على رشيد ؟
عودة محمد علي إلى القاهرة قادما من الصعيد
الباب الحادى عشر
حصار الحماد ومقاومة الأهالى للحصار 111
قوات محمد علي تصل إلى رشيد والحماد
وفى الحماد الكولونيل ماكلود يعيد تشكيل قواته
الجنرال ستيوارت يطلب من ماكلود الإستبسال فى الدفاع عن الحماد
معركة الحماد 21 إبريل 1807
ماذا يقول الانجليز عن معركة الحماد ؟
تاثير معركة الحماد ى الموقف الحربي
الباب الثانى عشر
رفع الحصار عن رشيد وانسحاب القوات الانجليزيه.............................. 118
فريزر يتحصن بالاسكندرية ويقطع سد أبى قير
الحالة السياسية ى أوربا وأثرها على حملة فريزر
فريزر يطلب الإنسحاب من مصر
ما أسباب فشل حملة فريزر على مصر ؟
دهشة المعاصرين من انتصار الشعب على قوات الامبراطورية
الباب الثالث عشر
نتائج النصر 123
أمة واحدة
قوات محمد علي تزحف على الاسكندرية
الصلح (معاهدة دمنهور)
معاهدة دمنهور
نص معاهدة دمنهور

فهرس

رحيل الحملة عن الاسكندرية
محمد علي يتجه إلى رشيد ويسافر منها إلى القاهرة
السلطان العثماني يعبر عن ابتهاجه وتقديره لمحمد علي

الباب الرابع عشر
المصير 129
مصير رشيد
مصير الشيخ حسن كريت
رأي الأستاذ يوسف زيدان
الخاتمه.. 133
الإهـــداء 136

المراجع.. 138

الفهرس 139

رقم الإيداع : 4677

هذا الكتاب

يأتي هذا الكتاب حلقة فى سلسلة النضال الذى يقوم به الشعب المصري دفاعاً عن حريته واستقلاله على مر العصور. هذا الشعب الجاد المتفاني فى عملية البناء الحضاري التى بدأها منذ فجر التاريخ، لا يرضى أبدا أن يوقف مسيرته الحضارية طاغٍ أو مستبد. هذا الشعب أوتي صبر أيوب وعمل داود – كان يأكل من عمل يده –وحكمة يعقوب – أشكو بثي وحزني إلى الله – .

لكن للصبر حدود، ولا يعرف أحدٌ متى ينفذ صبر هذا الشعب. تراه هادئاً كالبحر وبعد لحظه تراه يرغى ويزبد وترتفع أمواجه فتكسر السدود وتحطم الأعمدة. تراه هادئاً كنسمة الصباح يسخرمن فقره وسوء حظه، وبعد لحظه يثور لكرامته المُهانة فتعصف الرياح وترعد العواصف تقتلع أمامها كل فساد.

وهو فى هذا لا يحسب حساباً للمكسب و الخسارة أو لمقدرته المادية على القيام بتلك الثورة أو بخوض تلك المعركة. لكنه يثور عندما تنحرف به الطريق عما رسمه الله للأمم التى أنيط بها عمارة الأرض. وهنا تعمل البوصلة الفطرية التى أودعها الله فيه .. فيعود إلى جادة الطريق.

وهذا ما حدث عندما تصدى شعب رشيد لحملة فريزر عام 1807.

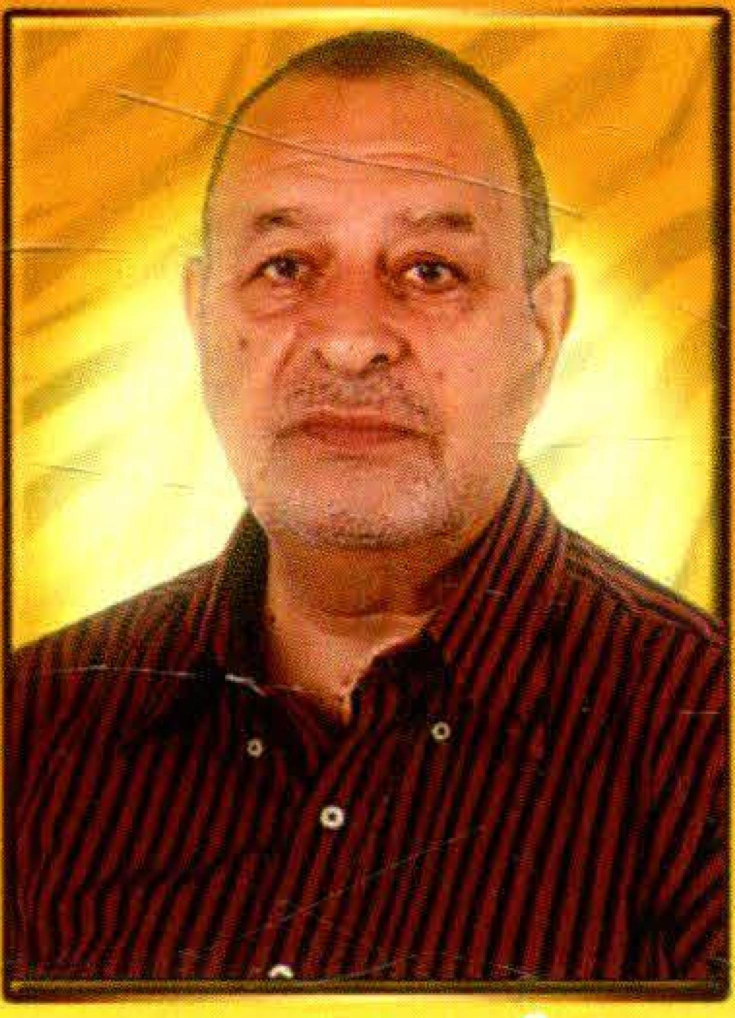

الكاتب في سطور

* من مواليد رشيد. حاصل على ليسانس الآداب – جامعة الإسكندريه.

* عمل مدرسا للغة الانجليزية بمعاهد الأقصر دمنهور الاسكندرية.

* سافر إلى الجزائر والمملكه العربية السعودية.

* ترقى فى الوظيفة حتى منصب موجه عام لغة انجليزيه على مناطق الاسكندريه ومطروح.

* ثم وكيلا للمنطقة التعليمية الأزهرية بالاسكندرية.

* للمؤلف كتب سبق نشرها وهي :
1- رشيديات (2010) ذكريات شخصيا...
2- رشيدى فى رحاب المدينة (2011) ديوان شعر

دار الطباعة الحرة
٤٨٦٠٠١٢

Bibliotheca Alexandrina
1133474